ما لا يُنتزع بالمقاومة..



المشتبك

السنة: ٢٠١٩

العدد: الأول

يُنتزع بمزيدٍ من المقاومة



نحن لسنا بحاجة إلى ماركس آخر ، ولا إلى لينين آخر ، نحن بحاجة إلى حزب ماركسي لينيني

مهدي عامل

نوجه دعوتنا إلى الرفاق في الوطن العربي والعالم ، بالمساهمة النظرية وإرسال كتاباتهم إلى

بريد المجلة: almoshtabek@gmail.com

ملاحظة: بإمكانك الضغط
على أي عنوان للذهاب
إليه مباشرةً

الفهرس



كاريكاتير للشهيد ناجي العلي (١٩٣٨-١٩٨٧)

العودة للفهرس

النكبة ومآلات الصراع

تَصادفَ أن تبدأ تجهيزاتنا للعدد الأول مع الذكرى الحادية والسبعين لسلب الوطن الفلسطيني، ولم يكن ممكنا أن يصدرَ العدد دونَ أن نُحيي تلك الذكرى التعيسة، ليس بالعويل ولا النحيب ولكن بإعادة الاعتبار لمعنى الحدث، وإعادة التأكيد على ثوابتٍ يتم هدمها في إطار المد الصهيوني الرجعي. وبالطبع، في قادم الأعداد ستحتل فلسطين وقضية الصراع العربي الصهيوني -بشكلٍ تفصيلي- مكانتها كقضيةٍ محوريةٍ لا يمكن فصلها قيد أنملة عن قضية تحرير المنطقة العربية برمتها وقضية إسقاط الإمبريالية كتشكيلة ساقطة.

إن الصهيونية قاعدة متقدمة للإمبريالية

لم يكن تأسيس الكيان الصهيوني مجرد تحقيقٍ لوهمٍ توراتيٍ يمنح اليهود حقًا في إقامة وطنٍ لقوميتهم المزعومة على أرض فلسطين، بل كان هذا الوهم التوراتي مجرد تكئةٍ، تغليفٍ لجوهر العملية الحقيقية، عملية زرعِ قاعدةٍ متقدمةٍ للاستعمار في قلب المنطقة العربية. وعلى هذا الجوهر، يجب أن نبني كامل موقفنا من القضية، كامل رؤيتنا للحل.

يجب أن تتم رؤية الكيان الصهيوني في إطار رؤيتنا للنظام العالمي، نظام الاحتكارات الإمبريالية التي سعت دومًا لإخضاع العالم كله لمقتضيات نموها وتوسعها، إن هذا الكيان هو عصا الإمبريالية، هو أحد التشكيلات الوظيفية التي استحدثتها الإمبريالية، لا لتركيع الشعوب العربية فقط، بل إن تأثير ودور الكيان يمتد خارج حدود الإقليم، ليس هذا بجديد. كما أنه ليس جديدًا أيضًا هذا الاستنتاج القائل: بأن هناك تراتبية للعمل -- تنسيق هيكل السيطرة الإمبريالية في المنطقة، هيكلٌ تحتل إسرائيل فيه موضع القلب، في علاقة جدلية مع أنظمة الرجعية العربية بحيث يصبح من المستحيل فصلها. إن بقاء إسرائيل مرتبطٌ ببقاء الرجعيات العربية الكبيرة والعكس صحيحٌ تمامًا.

هاتان الحقيقتان تؤسِّسان للموقف التالي، قضية فلسطين ليست كذلك -أي أنها ليست قضية الشعب الفلسطيني- إنها قضية

الشعوب العربية كلها، لا مجازًا ومن باب التضامن مع الإخوة في مصابهم، بل لأن مصلحة الشعوب العربية الساعية إلى التحرر من التبعية وبالتالي من الفقر والإذلال الاقتصادي، التحرر من تقسيم العمل الدولي الذي يصنف بلادنا كعالم ثالث وظيفته خدمة مقتضيات النمو في المركز الامبريالي. إن الخلاص من تلك الوضعية غير ممكنٍ إلا بالانخراط في نضالٍ حادٍ ضد الكُمبرادورات العربية وضد الكيان الصهيوني، في آنٍ معًا. لم يعد بالإمكان اعتبار قضية التحرر الوطني والاجتماعي محضَ قضيةٍ محليةٍ، بل إن الشعوب العربية ولو شربت الكذبة البرجوازية الشنيعة التي دأبت سلطات كامب ديفيد على ترديدها -الكذبة القائلة بأنه لا مصلحة لنا في النضال ضد الصهيونية وأنه ليس لزامًا علينا الدفع من دمنا ومواردنا وتغذية الصراع ضد الصهاينة، وأن بلادنا لم تجنِ منه سوى الفقر والخراب والدم-- فلا يجب أن تنطلي علينا، لأنها في الحقيقة تريد دفعنا بقوةٍ في اتجاه آخر.



كاريكاتير للشهيد ناجي العلي (١٩٣٨-١٩٨٧)

لقد قدمنا الدم والموارد في كفاحٍ قديمٍ طويلٍ ضد الصهيوني، لكنه لم يكن كفاحًا تضامنيًا مع الشعب الفلسطيني في قضيته العادلة. نعم، يحمل هذا التضامن الكفاحي طابعًا إنسانيًا عظيمًا، لكنه قبل كل شيء كفاحٌ لأجل مستقبل الشعوب العربية كلها. إن دمنا ومواردنا التي قدمناها في الصراع ضد الإمبريالية وقاعدتها الصهيونية لهي تكلفةٌ ضئيلةٌ، لا تضاهي التكلفة التي دفعتها وتدفعها الشعوب العربية منذ انكفأت واستسلمت للبرجوازيات الصهيونية الحاكمة.

كانت تكلفة الخضوع لأدوات الهيمنة الإمبريالية عبر عقودٍ طويلةٍ فاتورةً ضخمةً بنودها فقرٌ وجهلٌ وبطالةٌ، شعوبٌ من العمال والفلاحين تدور كالثيران المربوطة في ساقيةٍ تُدرُ ذهبًا للإمبريالية. تكتشفُ بلادنا -التي أقنعوها بأن القتال ضد الصهاينة مُكلف- كل يومٍ أن الخضوع للاستعمار والصهيونية أشد وطأةً وتكلفة.

وفوق هذا، ليست قضية فلسطين قضيةً إقليميةً تخص الشعوب العربية فقط، لماذا؟ لأن مستقبل الإمبريالية كله يصبح على المحك إن فقدت قاعدتها الاستعمارية الرجعية في الشرق. إن صار وفقدت الإمبريالية الكيان الصهيوني تحت ضربات الكفاح الشعبي العربي، فإنها ستفقد الرجعيات العربية الخادمة لها، أي أنها ستفقد السيطرة على هذا السوق الضخم، ومصادر الطاقة وطرق النقل الحيوية. لو تمت هزيمة الإمبريالية وطردها من الشرق الأوسط، سيكافئ ذلك تأثير انسداد الشرايين التاجية التي تغذي عضلة القلب، سيصبح سقوط الإمبريالية مسألة وقت.

وعليه فإن الكفاح ضد الصهيونية مسألةُ حياةٍ أو موت بالنسبة للشعوب الفقيرة في كل العالم، الذي حولوه إلى مستعمرة فقراءَ منهوبين وخاضعين. مسألة حياة أو موت، لأن بقاء الإمبريالية ذاته أصبح يهدد بقاء الكوكب، إن تحرير فلسطين مرتبطٌ ببقاء البشرية.

> **إن كل مشروعات التسوية التي طُرحت ليس لها مصير إلا الدفن مع الكيان الصهيوني في مقبرة واحدة.**

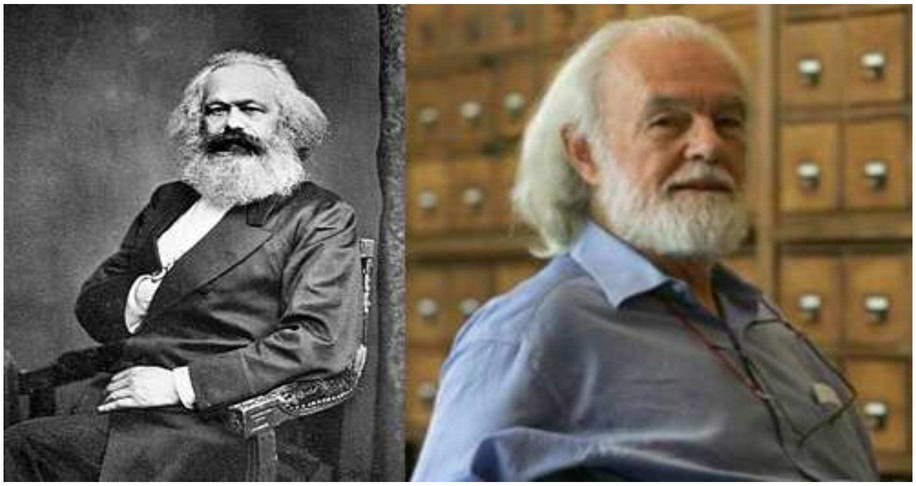
و"الكفاح ضد الصهيونية" شعارٌ عظيمٌ جعلوه فضفاضًا بشكلٍ مبتذلٍ، بل أصبح يحمل مضامين صهيونية في حد ذاته. إننا نعتبر الصهيونية في أبسط تعريفاتها هي الاعتراف ودعم حق اليهود في إقامة وطنٍ على أرض فلسطين العربية، أرض فلسطين من النهر إلى البحر. وعليه، لا يمكن للكفاح ضد الصهيونية في نظرنا إلا أن يكون كفاحًا ضد الوجود الإسرائيلي ذاته، ضد بقاء مستعمرةٍ صهيونيةٍ واحدةٍ ولو على شبرٍ من الأرض العربية. وفي إطار هذا التعريف، يمكننا القول أن كل مشروعات التسوية التي طُرحت ليس لها مصيرٌ إلا الدفن مع الكيان الصهيوني في مقبرةٍ واحدة.

> **الموت لإسرائيل ومن والاها!**

إننا لا نعترف بأي حلٍ مرحليٍ للصراع، ولا نؤمن بجدوى أي محاولاتٍ سلمية، قبل أن تبدأ مسيرة الحل السلمي وبعد أن وصلت بالقضية إلى الوضع الحالي. إن طريق التحرير واضحٌ برغم قسوة الظرف الموضوعي والذاتي، ستظل الحرب الشعبية الطويلة هي الطريق الوحيد لتحرير كل فلسطين. وفي إطار تلك الحرب، ستكون المراحل المعترف بها هي فقط كل بقعة أرضٍ يتم تحريرها بقوة الجماهير المسلحة، كل شبرٍ يتم تحريره هو مرحلةٌ في طريق التحرير الطويل، الطريق الذي سيبدأ من تحرير كل عاصمةٍ عربيةٍ من قبضة الأنظمة اليمينية وإرساء حكم الجماهير الشعبية العربية.

عاش كفاح الشعب الفلسطيني البطل!

العودة للفهرس



لِما يزال ماركس راهنيًا؟ حوار مع ديفيد هارفي

رابط النص الأصلي: اضغط هنا

ترجمة: خليل حدّاد

مراجعة: قسم الترجمة

> مائتا عامٍ على ولادة كارل ماركس وأعماله تبقى راهنية كما كانت دومًا.

في الذكرى المئوية الثانية لميلاد كارل ماركس، تنوسُ الرأسمالية العالمية بين أزمةٍ وأخرى. نَمَا في أعقاب الانهيار المالي الاهتمامُ بأفكار ماركس مرةً أخرى. لا ينبغي أن يكون هذا مفاجِئًا: فهي تظل ضرورية لفهم لا فقط ديناميات الرأسمالية نفسها بل كذا الطريقة التي تصوغ بها عالمنا الحديث.

ديفيد هارفي أحد أبرز دارسي ماركس. أصبحت محاضراته حول مجلدات *رأس المال* الثلاثة مرادفةً لصعود نجم ماركس في السنوات الأخيرة، وشاهدها الملايين عبر الإنترنت. كُثِّفَت هذه المحاضرات في كتابٍ صدر مؤخرًا "*ماركس ورأس المال وجنون المنطق/العقل الاقتصادي* *Marx, Capital and the madness of Economic Reason*"، دليلُ لعملِ ماركس، والذي يتناول راهنيته اليوم.

في هذه المقابلة، تحدث الصحفي دانيال دِنفِر "Daniel Denver" مع هارفي حول عمل ماركس، وفهمه لتناقضات الرأسمالية، ولِما استمرت أفكاره فترةً طويلة حتى بعد رحيله.

***دينفر:** لقد مضى وقت طويل وأنت تدرّسُ رأس المال، هل بإمكانك تقديم عرضٍ موجز للمجلدات الثلاثة؟*

هارفي: ماركس مفرِط في التفاصيل، ومن الصعب في بعض الأحيان تكوين فكرة دقيقة حول التصور الكامل *لرأس المال*. لكن في الحقيقة، الأمر بسيط. يبدأ الرأسماليون بمبلغٍ معين من النقد، فيأخذونه إلى السوق ويشترون سلعًا مثل وسائل الإنتاج وقوة العمل، ثم يضعونها في عملية عمل ينتج سلعة جديدة. لتباع هذه السلعة مقابل نقد زائد ربح. ثم توزَّع الأرباح بطرق مختلفة، في شكل إيجارات وفوائد، والتي تعود أدراجها مرة أخرى إلى نقدٍ، مطلِقةً دورة الإنتاج من جديد.

إنها عملية تداول. وتتناول مجلدات رأس المال الثلاثة جوانب مختلفة. الأول يتناول الإنتاج. والثاني يتناول التداول وما نسميه "التحقق Realisation" — الطريقة التي تحوَّل بها السلعة إلى نقود. وتناول الثالث التوزيع —كم يذهب إلى المالك، وكم يذهب إلى الممول، وكم يذهب إلى التاجر، قبل أن يستدير كل شيء ويعاد إلى عملية التداول.

هذا ما أحاول تدريسه، بحيث يفهم الناس العلاقات بين مجلدات رأس المال الثلاثة ولا يتوهون في مجلد أو جزء ما.

***دينفر**: إنك تختلف عن دارسي ماركس الآخرين في أنك تولي الكثير من الاهتمام للمجلدين الثاني والثالث، بالإضافة إلى المجلد الأول، لماذا؟*

هارفي: من الواضح أنه كان في ذهن ماركس فكرة عن مجمل تداول رأس المال. كانت خطته تقسيمها إلى هذه المكونات الثلاثة في مجلدات ثلاثة. لذلك، أتابع فقط ما يقول ماركس أنه يفعله. الآن المشكلة بالطبع، أن المجلدين الثاني والثالث لم يكتملا قط، وهما ليسا بسوية المجلد الأول "التحفة الأدبية". لذلك أستطيع أن أفهم لماذا، إذا أراد الناس قراءة ماركس بشعور معين من الفرح والمرح، فإنهم سوف يلتزمون بالمجلد الأول. لكنني أقول "لا، إذا كنت تريد حقًا أن تفهم تصوره عن رأس المال، فلا يمكنك فهمه على أنه مجرد إنتاج. إنه عن التداول. إنه عن تسويقه وبيعه (أي الإنتاج—المترجم)، ثم عن توزيع الأرباح".

***دينفر**: أحد أسباب أهميته هو أننا في حاجة إليه لفهم دينامية التوسع المستمر التي تحرِّك الرأسمالية.*



هارفي: تخرج من المجلد الأول بهذه الفكرة "اللانهاية السيئة". يجب أن يتوسع النظام لأنه يتعلق دائمًا بالربح، وخلق ما أطلق عليه ماركس "فائض القيمة،" ثم يعاد استثمار فائض القيمة لخلق المزيد من فائض القيمة. لذلك رأس المال هو حول التوسع المستمر.

وما يفعله هو: إذا كنت تنمو بمعدل3 في المائة سنويًا، وإلى الأبد، فإنك تصل إلى النقطة التي تكون فيها كمية التوسع المطلوبة ضخمة للغاية. في زمن ماركس، وجِدَت مساحة واسعة في العالم للتوسع فيها، بينما نتحدث الآن عن معدل نمو مركب يبلغ3 في المائة على كل ما يجري في الصين وجنوب آسيا وأمريكا اللاتينية. تبرز المشكلة: إلى أي مكانٍ تذهب لتتوسع فيه؟ هذا تجسيدٌ للانهاية السيئة. يقول ماركس في المجلد الثالث، لربما الطريقة الوحيدة للتوسع هي التوسع النقدي. لأنه مع النقد لا يوجد حد. إذا كنا نتحدث عن استخدام الأسمنت أو شيء من هذا القبيل، فهناك حد مادي لما يمكنك إنتاجه. ولكن بالمال، يمكنك فقط إضافة أصفار إلى المعروض النقدي العالمي. إذا نظرت إلى ما فعلناه بعد أزمة عام ٢٠٠٨، أضفنا الأصفار إلى عرض النقود من خلال ما يسمى "التيسير الكمي" (سياسة نقدية غير تقليدية قائمة على طباعة النقود وشراء الأصول لتنشيط السوق –المترجم). ثم تدفقت هذه الأموال مرة أخرى إلى أسواق الأوراق المالية، ثم فقاعات الأصول، وخاصة في أسواق العقارات. لدينا الآن موقف غريب حيث يوجد في كل ميتروبوليتان قمت بزيارته، طفرة هائلة في البناء وأسعار الأصول العقارية –وكل ذلك مدعوم بحقيقة أن المال يطبع ولا يعرف إلى أين يذهب خلاف المضاربة وقيم الأصول.

***دينفر**: أنت جغرافي، وبالنسبة لك فتحليل ماركس للرأسمالية جوهري للتعامل مع مشاكل الحيّز والزمان، لِما هذان البعدان (الحيّز والزمان) شديدا الأهمية؟*

هارفي: على سبيل المثال، إن معدل الفائدة يدور حول الخصم في المستقبل. والاقتراض يدور حول رهن المستقبل. الدين هو مطالبة على الإنتاج المستقبلي. لذا فالمستقبل مرهون لأننا يجب أن ندفع ديوننا. سَلْ أي طالب يدين بمبلغ 800000 دولار: مستقبله مرهون، لأن عليه سداد هذا الدين. هذا الرهن للمستقبل جزء مهم للغاية فيما يتناوله *رأس المال*. تأتي عناصر المساحة (أي الحيّز) لأنك عندما تبدأ بالتوسع، هناك دومًا احتمال أنه إذا لم تتمكن من التوسع في حيّزٍ معين، فأنت تأخذ رأسمالك وتذهب إلى مكان آخر. على سبيل المثال، كانت بريطانيا تنتج الكثير من فائض رأس المال في القرن التاسع عشر، لذلك كان الكثير منه يتدفق إلى أمريكا الشمالية، بعضه عبر أمريكا اللاتينية، وبعضه إلى جنوب إفريقيا. لذلك هناك جانب جغرافي لهذا الأمر.

توسع النظام يدور حول الحصول على ما أسميه "إصلاحات مكانية .Spatial fixes"صادفتك مشكلة: لديك رأسمال فائض. ماذا ستفعل بشأنه؟ حسنًا، لديك إصلاح مكاني، أي أنك تخرج وتبني شيئًا ما في مكان آخر من العالم. إذا كانت لديك قارة "غير مسكونة" مثل أمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر، فهناك مساحة هائلة يمكنك التوسع فيها. ولكن الآن أمريكا الشمالية مغطاة إلى حد كبير.

إن إعادة التنظيم المكاني لا تعني مجرد التوسع. إنها تتعلق أيضًا بإعادة الإعمار. حصلنا على خفض التصنيع

"deindustrialization" في الولايات المتحدة وأوروبا، ثم إعادة تشكيل منطقة عبر إعادة التطوير الحضري، بحيث تتحول مصانع القطن في ولاية ماساتشوستس إلى مجمعات سكنية.

حاليًا، نفقد الحيز والوقت. هذه واحدة من أكبر مشاكل الرأسمالية المعاصرة.

دينفر: ما الذي يفوت اقتصاديي التيار السائد بخصوص هذا كله؟

هارفي: يكرهون التناقضات. لا تتوافق مع نظرتهم للعالم. يحب الاقتصاديون مواجهة ما يسمونه بالمشاكل، والمشاكل لها حلول. التناقضات، لا. إنها موجودة معك طوال الوقت، وبالتالي يتعين عليك إدارتها. إنهم يَعلَقون فيما وصفه ماركس بـ "التناقضات المطلقة". كيف يتعامل الاقتصاديون مع حقيقة أنه في أزمة ثلاثينات أو سبعينات القرن الماضي أو في الآونة الأخيرة، فائض رأس المال والعمالة الفائضة يجلسان جنبًا إلى جنب، ولا يبدو أن لدى أحدهم فكرة عن كيفية جمعهما مرةً أخرى ليتمكنا من العمل لأغراض منتجة اجتماعيًا؟

> يكره اقتصاديو التيار السائد التناقضات، ويفضلون بدلًا من مواجهتها أن يواجهوا مشكلاتٍ، فالمشكلات لها حلول أما التناقضات فلا.

حاول كينز القيام بشيء حيال ذلك. لكن بشكل عام، ليس لدى الاقتصاديين أي فكرة عن كيفية التعامل مع هذه التناقضات. بينما يقول ماركس إن هذا التناقض في طبيعة تراكم رأس المال. وهذا التناقض ينتج عنه هذه الأزمات بشكل دوري، والتي تحصد الأرواح وتسبب البؤس.

دينفر: فيما يتعلق بهذا التناقض، فأنت تصف في كتابك "فائض رأس المال وفائض العمالة الموجود جنبًا إلى جنب بلا طريقة —فيما يبدو- لإعادة جمعهما مجددًا". كيف حاولت الرأسمالية حل هذا؟

هارفي: كان الرد على أزمة ٢٠٠٧-٢٠٠٨، في معظم أنحاء العالم —باستثناء الصين- باتباع سياسة تقشف نيوليبرالية. مما جعل الأمور أسوأ. منذ ذلك الحين، كان لدينا المزيد من الاقتطاعات. لم يفلح هذا. ببطء، تراجعت البطالة في الولايات المتحدة، لكنها بالطبع قفزت في أماكن مثل البرازيل والأرجنتين.

كان للحجة النيوليبرالية الكثير من الشرعية في الثمانينيات والتسعينيات باعتبارها تحررية بطريقة ما. لكن لا أحد يعتقد بذلك الآن. الجميع يدرك أنها خدعة، يُمسي فيها الأغنياء أغنى والفقراء أفقر.

لكننا نشهد اليوم ظهور نزعة حمائية قومية إثنية، وهي نموذج مختلف. هذا لا يتماشى تمامًا مع المثل النيوليبرالية. يمكن أن نتجه نحو شيء سلبي أكثر من النيوليبرالية، تقسيم العالم إلى فصائل متحاربة وحمائية تقاتل بعضها بعضا على التجارة وعلى كل شيء آخر.

حجة شخص مثل ستيف بانون "Steve Bannon" هي أننا بحاجة إلى حماية العاملين في أمريكا من المنافسة في سوق العمل عن طريق الحد من الهجرة. بدلًا من إلقاء اللوم على رأس المال، فإنك تلوم المهاجرين. الشيء الثاني هو القول: يمكننا أيضًا الحصول على الدعم من هؤلاء السكان عبر فرض الرسوم الجمركية وإلقاء اللوم على المنافسة الصينية. في الواقع، لديك جناح يميني يجمع قدرًا كبيرًا من الدعم لكونه معادٍ للهجرة ومعادٍ للاستثمار في الخارج."offshoring"

دينفر: أنت معروف جيدًا بعملك الأكاديمي، ولكن ربما تكون معروف أكثر بصفتك مدرسا لماركس. لماذا تعتقد أنه من المهم لليساريين خارج الأكاديميا الانخراط في عمل ماركس (أي رأس المال —المترجم)؟

هارفي: عندما تشارك في العمل والنشاط السياسي، عادة ما يكون لديك هدف محدد للغاية. دعنا نقول، التسمم بالرصاص في داخل المدينة. تقوم بالتنظيم لِما يجب فعله بشأن حقيقة أن 80% من الأطفال في بالتيمور —داخل المدينة- يعانون من التسمم بالرصاص. تنخرط في مواجهة قانونية، وفي القتال مع جماعات الضغط المالكة وباقي الخصوم. معظم الناس الذين أعرفهم ممن يشاركون في أشكال من هذا النوع من الأنشطة يستهلكون بتفاصيل ما يفعلونه، وغالبًا ما ينسون مكان وجودهم في الصورة العامة — للصراعات في المدينة، ناهيك عن العالم.

كثيرًا ما تجد أن الناس بحاجة إلى مساعدة من الخارج. يعد التعامل مع الدهانات المحتوية على الرصاص أسهل بكثير إذا اجتمع تحت رايتك كل الأشخاص المنخرطين في النظام التعليمي، والذين

يرون الأطفال في المدارس يعانون من مشاكل التسمم بالرصاص.
تبدأ في بناء التحالفات. وكلما زادت التحالفات التي يمكنك بناءها ، زادت قوة حركتك.

أحاول إنشاء إطار للتفكير ، حتى يتمكن الناس من رؤية موقعهم في مجمل العلاقات المعقدة التي تشكِّل المجتمع المعاصر.

أحاول ألاّ ألقي محاضرات للناس حول ما يجب أن يفكروا فيه ، ولكن أحاول إنشاء إطار للتفكير ، حتى يتمكن الناس من رؤية موقعهم في مجمل العلاقات المعقدة التي تشكِّل المجتمع المعاصر. بعد ذلك ، يمكن للأشخاص تشكيل تحالفات حول القضايا التي يهتمون بها ، وفي الوقت نفسه ، حشد سلطاتهم لمساعدة الآخرين في تحالفاتهم.

أنا مع بناء التحالفات. من أجل بناء التحالفات ، يجب أن يكون لديك صورة لمجموع المجتمع الرأسمالي. بدرجة ما يمكنك الحصول على بعض ذلك عبر دراسة ماركس ، أعتقد بأن هذا ما تفيدنا (أي قراءة أعماله– المترجم) به.



العودة للفهرس

لماذا نقرأ "*رأس المال*" بعد مائة وخمسين عامًا؟

رابط المقال الأصلي- اضغط هنا

ماثياس كُرُل Matthijs Krul

ترجمة: نضال مسعود

مراجعة: قسم الترجمة

من بين كل أعماله، فإن شهرة كارل ماركس مبنية على عمله العظيم "*رأس المال*: نقد الاقتصاد السياسي". بالطبع هناك أعمال اشتراكية أخرى تركت أثرًا كبيرًا، من البيان الشيوعي، لمقالات أورويل، لكُتَّاب القصص مثل سنكلير وشتاينبك. أولئك فعلوا الكثير لإلهام التصور الاشتراكي وساعدوا في صياغة ما يمكن أن تكون وما يجب أن تكون عليه السياسة الاشتراكية. ولكن الأولوية بالضرورة تظل للنظرية، وذروة النظرية الاشتراكية بلا شك هي *رأس المال*. وحتى الآن، بعد مائة وخمسين عامًا من نشر الجزء الأول في هامبورغ، يعترف الأصدقاء والأعداء، على حدٍ سواء، بذلك العمل كأهم مساهمة للفكر الاشتراكي في ميدان الاقتصاد السياسي.

ربما قبل كل شيء، تُعرَّف الاشتراكية أنَّها إبتغاء تغييرات جذرية في طريقة تنظيم الإنتاج والتوزيع والعمل في المجتمع الطبقي. بالتالي، فدراسة الاقتصاد السياسي (فهم العمليات الاقتصادية وتأثيرها في تنظيم المجتمع ككل) تشكِّل حجر الأساس في الفكر الاشتراكي، وذلك ما يجعل "*رأس المال*" شيّقًا ككتاب، أو ذلك ما يجب أن يكون.

فبمقدار ما يُكال من مديحٍ أو إزدراء *لرأس المال*، قلةٌ في الواقع هي من تنوي قراءته. فكثيرٌ من النشطاء الاشتراكيين بدافع الفضول بأعمال الرجل العجوز، أو الواجب، يجب عليهم قراءة *رأسماله*، أو محاولة قراءته. لكن يمكن التنبؤ بتجربتهم مسبقًا.

متوقعين نقاشًا حيويًا حول الرأسمالية، كيف تعمل، مشاكلها وهلمجرا، لكنهم يصطدمون بمناقشةٍ مجردةٍ ومطولة وغير مفهومة عن القيمة والسلع والمقادير، وللتوضيح يُستعان بأمثلةٍ كمثال تبادل قماشٍ بمعطف.

بعد ثلاثة فصول ، إن صار ووصلوا إلي هذا الحد ، يفترضون ولأسباب مفهومة أنَّ الكتاب ككل على هذه الشاكلة فيستسلمون ، غير عابئين بمعرفة آليات عمل الرأسمالية المعاصرة .

إنه لأمرٌ مؤسف ، ويُلام ماركس بالتحديد على هذا. ولكن برغم صعوبة أول ثلاثة فصول ، وبالرغم مما سيخبرنا به عموم الاقتصاديين ومعلِّقي الصحف ومتصدري الشاشات بأن هذا الكتاب لايستحق أي عناء أو مجهود ، لأنه كتابٌ أكل عليه الدهر وشرب وعلاوةً على ذلك أنه كتابٌ غير علمي وخاطئ ، إلا أن على الناشطين رزيني التفكير قراءته. وعلى كل اشتراكي قراءة المجلد الأول على الأقل وذلك للأسباب التالية:

> «مرجع لا غنى عنه للاقتصاد السياسي. وبالطبع فهذا هدفه الأوضح كعمل علمي».

كان ماركس شديد الحرص على ألَّا يُفهَم كتابه ببساطة كجدال ضد الرأسمالية بل كتحليل جاد ورصين لكيفية عملها. وهذا ما يُفسِّر التجريد في أول ثلاث فصول: فيوضح ماركس فيهم بشكل جوهري المصطلحات والطريقة التي سيستخدم بها مفاهيمه في بقية الكتاب ، كأيّ كتاب جامعي أو مقالة علمية .

وبسبب ذلك الغرض العلمي الأساسي ، *فرأس المال* ليس كتاب عن شكل محدد من الرأسمالية ، بالرغم من صياغة ماركس لأمثلته بشكل رئيسي من بريطانيا العصر الفيكتوري الصناعي في وقته.

لفهم محتوي الكتاب ، ولماذا مازال مهمًا ، فمن الضروري معرفة أنه يقدم نظرية خالصة للرأسمالية: أي ما يسميه ماركس "قوانين حركة رأس المال" مجردة من أي خصوصية جغرافية أو تاريخية .

بالطبع ، فالأمثلة الخاصة بعمل المصنع وما إلي ذلك تختلف في عالم اليوم ، ولكن مع هذا يمكن ملاحظتها في مصانع الصين وغيرها من الدول الأخرى حيث يُنتج القسم الأكبر من السلع اليوم. إلا أن قوانين حركة الرأسمال لا تتغير ، وهذا ما يجعل تحليله مهمًا .

قد يستغرق تلخيص ذلك التحليل منا نقاشًا بحجم كتاب. أفضل طريقة لشرحه -دون أن تكون بديلًا عن قراءة الكتاب- هي استيعاب ما الذي أراده ماركس عند كتابته .

أراد ماركس فهم المجتمع الرأسمالي كأسلوب تاريخي خاص للحياة. كطريقة محددة لتنظيم العمل والبضائع. وبذلك ، فالرأسمالية عنده متميزة تاريخيًا ، ولكنها أيضًا تحوي منطقها الداخلي الذي يحركها ، والذي يُبقي ذلك المجتمع متحركًا في خضم كل التغيرات التكنولوجية وتراكم السلع والمال وفقًا لذلك المنطق المحدد .

الغرض من *رأس المال* ليس مجرد وصف ذلك المنطق. ولكن الأهم ، إيضاح لِما لديها ذلك المنطق. بعبارةٍ أخرى ، هو يرصد الرأسمالية كنظام شبه كامل من الملكية الخاصة لكل شيء ، ومرتكز علي محركين رئيسيين هما المنافسة والتراكم ، وقوة عاملة منظمة تبيع عملها مقابل أجر خلال يوم أو أسبوع أو شهر عمل محدد ، بالإضافة إلى التغيرات التكنولوجية المستمرة والزيادة في إنتاجية العمل ، والمعاملات اليومية مثل النقد والتمويل والإئتمان.

لا يكتفي ماركس بمجرد رؤية الأشياء ووصفها ، فيتسائل عن سبب وجودها بهذا الشكل. بهذا المعنى ، *فرأس المال* إجابة عن سلسلة من الأسئلة: لِما ، في هذا المجتمع ، على الغالبية العظمى العمل عند أحدهم من أجل لقمة العيش؟ لماذا (تقريبًا) كل السلع والأراضي ، لا بل أيضًا قدرتنا على العمل تُبادل في الأسواق كمنتجات خاصة؟ ما هو الدور الذي تلعبه النقود في جعل تلك الأسواق ممكنة؟ إن كان كل ما يُنتَج يُباع وفق قيمته وكل من يعمل يتلقى أجرًا مساويًا لقيمة عمله ، عندها من أين يأتي الربح؟ في حين كانت التكنولوجيا ثابتة نسبيًا في الفترة التاريخية السابقة للرأسمالية ، فلِما في ظل الرأسمالية كل ما هو موجود يتغير باستمرار ، وبشكلٍ ثابت تُنتَجُ أشياء أكثر بنفس مقدار الوقت والعمل؟ لماذا تحتاج الرأسمالية للنمو الاقتصادي أو التراكم وإلا ستنهار؟ ولماذا توجد أزمات اقتصادية كل عدد من السنوات؟ وهلمجرا .

بالرغم مما قد يتبدى من صعوبة وغرابة المناقشات حول القيمة والسلع ، إلا أنَّه من المهم التذكر بأن الهدف منها هو الإجابة على تلك الأسئلة ولإظهار أن الأجوبة تنبع من طريقة عمل الرأسمالية: كنظام يتم التراكم فيه باسم الملكية الخاصة لمالكي وسائل إنتاج متنافسين وحيث كل شيء يُنتَج كسلع للسوق بواسطة أفراد متنافسين يبيعون قوة عملهم من أجل الأجور.

لم يتواجد كتاب يجيب عن كل تلك الأسئلة بطريقة جيدة ومتكاملة في خلال المئة وخمسين عامًا منذ صدوره مثل *رأس المال*.

«إن قراءته رائعة.»

بالرغم من صعوبة الفصول الأولى، إلا أنَّ قراءة *رأس المال* لهي بحق قراءةٌ رائعة. فيبدأ ماركس بمجرد إنتهائه من المناقشة الأكثر تجريدًا المذكورة آنفًا بوصف سردي شديد الحيوية للأشكال المختلفة التي تظهر بها الرأسمالية على السطح، إذا صح التعبير. يناقشُ بدايةً كيفية تراكم المال وبيع الناس لقوة عملهم مقابل أجر وكيف أوجدَ هذا السوق في التجريد الذي كان دائمًا من الناحية النظرية موضع نقاشات اقتصادية في الإعلام.

ثم يصف بتفصيل شديد، وتعليقات نقدية عديدة، الصراع حول طول وشدة وقت العمل، وتقسيم العمل، وتطور الصناعة الحديثة، والطرق المختلفة التي يسُتغَل بها العمال والسرقة والعنف والبطش والإبادة كعمليات تاريخية أنتجت الرأسمالية في المقام الأول. ويخلص إلى أن هذا كله يقود لـ تراكم لانهائي يُظهر رأس المال وملّاكه كمنتجين"Productive" في حين أنَّ من يعملون لديهم هم المنتجون الحقيقيون وهذا ما يجعل وجود الرأسمال ممكنًا بالرغم من استغلالهم واجبارهم على المنافسة (فيما بينهم). بهذه الطريقة يظهر كيف ينتج الناس قسرًا وعن غير قصد النظام الذي يقمعهم وكيف أنَّ النظام يجعل ذلك يبدو وكأنه طبيعي .

كل ذلك مكتوب بشكل واضح ومفهوم. كتابات ماركس هنا تعد واحدة من أفضل الكتابات الجدالية التي أنتجها القرن التاسع عشر. كتابات مليئة بتعليقات لاذعة حول نفاق ورياء الرأسماليين وأيديولوجييهم. والكثير من النكات (بعضها مبهم والبعض الأخر شديد الذكاء) عن التناقضات الواضحة بين "حرية" الرأسماليين والحياة الحقيقية للطبقة العاملة ويصب انتقاداته بالتساوي علي اقتصاديي عصره الذين فشلوا -أو رفضوا ببساطة- في إدراك الاستغلال كمكون ضروري للمجتمع الرأسمالي، بالضبط كما يفعلون اليوم .

هناك أيضًا العديد من الاستشهادات الأدبية (التي استحقت الاستشهاد بها) من المؤلفين الكلاسيكيين الرومان والإغريق إلى شكسبير ودون كيخوت بالإضافة إلى اقتباسات تاريخية مشهورة وكتابات الايديولوجيين الليبراليين من عصره. بالطبع ذلك ليس لمجرد الاستعراض ولكن لخدمة غرض معين.

على سبيل المثال، يتهكم ماركس على العديد من حركات النهضة الدينية في وقته من الكاثوليك للكويكرز لإظهار الأثر الايديولوجي الخطير لرؤية الرأسمالية كقوة طبيعية وكشيء أبدي ثابت. بنفس الطريقة، يستشهد ماركس بدون كيخوت لينتقد فكرة العودة لماضي أفضل أو لأنماط من العيش لم تعد متوافقة مع الظروف الحديثة كإجابة على مشكلات الرأسمالية .

لعل الجزء الأشهَر من سرد *رأس المال* هو مهارة ماركس المدهشة في توظيف كلمات الكُتّاب البرجوازيين والمعلقين وحتى حكومات عصره ضدهم.

فالكثير من نقاشاته المفصلة والمتقدة حول شرور القوى الرأسمالية على الطبقة العاملة وبخاصة في الفصول المتعلقة بيوم العمل والتصنيع على نطاق واسع، مرتكزة على قراءته المباشرة لتقارير الحكومة الخاصة بالمشاكل الاجتماعية للعصر الفيكتوري.

فيقارن بين تمجيد الرأسمالية كنظام للحرية والحقوق الفردية والرخاء من خلال معلقي عصره وبين الحقيقة الموجودة في التقارير الصحفية والحكومية (بالإضافة للمعلومات التي تلقاها من صديقه المقرب ومعاونه فريدريش إنجلس).

تلك الحقيقة هي الفقر والمرض والعمل الشاق واليأس والموت للطبقة العاملة، بينما يخبرونكَ –في الماضي كما في الحاضر- بفشلك الأخلاقي في التكيّف. قلة من الأعمال اخترقت بنجاعة الدفاعات التقليدية للرأسمالية وفضحت زيفها مثلما فعل ذلك العمل. إلا لو كان العمل عمل إنجلس الكلاسيكي "حال الطبقة العاملة في إنجلترا".

«إنه ضروري سياسيًا.»

وصف *رأس المال* بإنجيل الطبقة العاملة يحوي بلا شك على بعض المغالاة. ولكن هاري كليفر، أحد المعلقين البارزين على *رأس المال*، كان شديد الدقة عندما قال أحد أهداف ماركس من كتابة *رأس المال* هو وضع سلاح في يد العمال. في حين أن تحليل ماركس علمي في جوهره، إلا أنَّه لا يخفي آراؤه حول الرأسمالية كأسلوب حياة: فهى استغلالية، هدَّامة، وكلما تم التخلص منها بشكل أسرع كلما كان ذلك أفضل .

فبدون فهم الرأسمالية التي يشرحها *رأس المال* من الصعب توضيح الاستغلال، ومن الصعب فهم كيف أنَّ مجتمع من الملّاك الفرديين يمكن أن يؤدي إلى عدم الحرية، وبالتالي يصعب التخلص من فكرة كون الرأسماية شيء طبيعي، فهكذا تسير الأمور!

بدون فهم علاقات القيمة التي تؤدي للتراكم الرأسمالي ، فمن الصعب معرفة نقطة البدء في التخلص من الرأسمالية. بدون فهم كيفية عمل النقد والتبادل والشؤون المالية في الرأسمالية الخالصة ، فنحن ملزمين بلا نهاية بالقدوم بحلول سحرية أو سياسات إصلاحية رديئة يفترض منها إزالة جانب سيء وحيد معترفين به وترك الباقي بدون (إزعاج).

ولكنها ليست فقط تلك القيمة الجدالية هي ما تعطيه تلك الأهمية. بدون رؤية ماركس المتكاملة والكلية عن الرأسمالية كنوع من المجتمع ، لن نستطيع فهم منطقها الداخلي الذي دائمًا وأبدًا ما يثور ضد محاولات إصلاحه وتنظيمه وعلى المدى الطويل ستحاول (أي الرأسمالية -المترجم) كسر تلك القيود الإصلاحية وغالبًا ما تنجح .

بدون تحليل ماركس فمن السهل إلقاء لوم البطالة والفقر والأزمات الاقتصادية على أسباب أخري كالغرباء بيننا ، والمهاجرين ، والفشل الأخلاقي ، وعدم كفاية العمل الشاق ، والادارة السيئة ، والمؤامرات .

يشير ماركس في هذا الكتاب إلى مكامن الضعف في الرأسمالية. فالأساس الحقيقي لاتحاد العمال يكمن في إدراك طريقة عمل المنافسة على تقسيم العمال في المجتمع الرأسمالي ، وفي سلطة ملّاك رأس المال على وقت عمل العاملين خلال يوم العمل. لذلك فالفصول حول يوم العمل وحول الأجور والعمل بالقطعة والتعاون ضرورية لفهم كيفية العمل ومقاومتها .

على نحو مماثل ، فالتحليل الساخط عن السلب والقتل وقمع الناس في العلاقات الما-قبل رأسمالية والنقاشات حول التشريعات الجارية والعنف ضد الطبقة العاملة يساهم بشكل مشترك في فهم الطبيعة الطبقية للقوانين والحكومات ومنفذيها .

في الوقت الحالي ، فهم الدلالة السياسية للنظم الائتمانية والمالية لا غنى عنه ، لفهم ذلك يجب الرجوع للمجلدين الثاني والثالث وبالأخص الثالث .

> «ينطوي *رأس المال* على فهم الطريقة التي تؤثِّر بها التكنولوجيا والتغيُّر التكنولوجي على أسلوب تنظيم المجتمع وتقسيم العمل والتأثير الذي يمارسه ذلك على جوانب الحياة الاجتماعية.»

أخيرًا وليس آخرًا ، ينطوي *رأس المال* على فهم الطريقة التي تؤثِّر بها التكنولوجيا والتغيُّر التكنولوجي على أسلوب تنظيم المجتمع وتقسيم العمل والتأثير الذي يمارسه ذلك على جوانب الحياة الاجتماعية. من الصعب التفكير بموضوع ذو صلة سياسية بذلك اكثر من عصر التشغيل الآلي الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر ووصل لآخر مراحله التاريخية.

يجعلك تعيد التفكير في طبيعة مجتمعنا. آخر نقطة ولطالما أغفِلت في *رأس المال* هي وضعه المجتمع الرأسمالي في سياق تاريخي أوسع.

فخلال حياته ومن بدايات تفكيره الالماني الرومانسي كان شاغل ماركس الوحيد هو فكرة أن القوى الاجتماعية التي تحدد أسلوب حياة الناس في مجتمعنا تظهر كما لو كانت قوىً طبيعية حتمية وغير متغيرة بالرغم من أنَّها ببساطة الحصيلة الإجمالية لأفعالنا الخاصة وعلاقاتنا .

بهذه الطريقة نحن ما أُطلقَ عليه لفظ "الاغتراب" : أي عاجزين عن رؤية أنَّ ما يجبرنا ويخدعنا هو ببساطة عملنا المنعكس علينا وليس شيئًا آخر قادمٌ من الخارج أو الأعلى.

كتب ماركس وإنجلس على مدار حياتهما العديد من الأعمال التاريخية بجانب الأعمال النظرية ، وفي كل واحد منها حاولا إظهار كيف أنَّ مجتمعات الماضي عملت بطريقة جعلت مَن عاشوا بها غير قادرين على إدراك أنَّ مصدر اضطهادهم وبؤسهم نابع من طريقة تنظيم علاقاتهم الاجتماعية .

بدلًا من ذلك ، فوجود العبودية أو الاقطاعية ظهر لمَن عاش معاصرًا لها كشيءٍ طبيعي أو كظاهرة إلهية ، تمامًا مثلما يجب أن يكون عليه أي شيء طبيعي وبدونها لن يكون هناك مجتمع على الاطلاق .

وجهة نظر ماركس هي إظهار أن نفس الشيء يصحُ على مجتمعنا الحالي.

نحن شديدي التأقلم مع ظاهرة الرأسمالية ، مع أسلوب تنظيم علاقاتنا ببعض وبالسلع التي ننتجها ونحتاجها لوجودنا ، لدرجة فشلنا في إدراك غرابة تلك الظاهرة .

حديث ماركس عن كيفية ظهور الرأسمالية ، عن كيف "يأتي الرأسمال يقطر من الرأس للقدم –ومن كل مسامه- الدم والتراب" كما

وصفها ليس فقط لإظهار أنَّها عنيفة أو بغيضة. بل قصد بها مساعدة القارئ على فهم مدى غرابة المجتمع الرأسمالي .

لماذا يجب أن نقضيَ أغلب حياتنا نعمل لشخص آخر في مكتب أو محل كيما نتمكن مِن العيش؟ ولماذا يجب أن نجعل الجميع يتنافسون ضد بعضهم لإنتاج أشياءَ أو خدمات يتم تبادلها مقابل أقل مقدار من القطع الورقية التي تحوي قيمة مطبوعةً عليها حتى نخرج أفضل ما في الناس ونحصل على مجتمع منتج وملائم للعيش فيه؟ وكيف يمكن لقلة من الناس أن تملك كل شيء من حيث كمية العمل التي يمكن تبادلها في السوق ومعظم الناس لا يملكون إلا قدرتهم على العمل؟ والأهم من ذلك، كيف تجعل التكنولوجيا حياتنا أسهل وتوقف التراكم أو المنافسة بينما عبء العمل لا يقل؟

أقل ما يمكن قوله: أن تلك ليست طرقًا بديهية لتنظيم مجتمع، وإذا صممت مجتمعًا من البداية فالأرجح أنك لن تصممه على هذا الشكل.

فماركس لا يشير بطريقة هيبية ويقول لا يمكنك أن تمتلك الأشياء أيها الإنسان، ولكنه يوضح أنه مثل أي مجتمع سابق قائم على التقسيم الطبقي والاستغلال، فمجتمعنا ظهر بطريقة تاريخية محددة وقد تطلَّب ذلك ولا يزال يتطلب كمية ضخمة من العنف الايديولوجي والفعلي لإظهاره بمنظر طبيعي .

شيءٌ يحتوي على أصولٍ واضحة يمكن تتبعها وتحديدها ليس بالشيء الحتمي أو الطبيعي، ذلكم شيءٌ يمكن تغييره إذا أردنا ذلك.

الرأسمالية ليست نمطًا سيئًا للمجتمع ولكنها غريبة أيضًا. إنها قائمة وماتزال قائمة بسببنا.

أتمني أن تفسر تلك الأسباب الجذَّابة لماذا لا يزال *رأس المال* بعد مائة وخمسين عامًا يستحق وقتك واهتمامك ويستحق أيضًا جهد البداية.

بعض المراجع والكتب التي تساعد القارئ على فهم نقاشات قانون القيمة المعقدة والمجردة (بتصرف):

- سلسلة حلقات ديفيد هارفي عن *رأس المال*.
- القيمة وتمثيل العمل تحت الرأسمالية، ديان إلسون.
- رأس مال ماركس، بين فاين وألفريدو سعد فيلهو.
- الرأسمالية: بعض التفكيك مطلوب، نيقول بيبريل: ”Nicole Pepperell's chapter Capitalism: Some Disassembly Required”
- مقدمة مايكل هينريك للمجلدات الثلاث من رأس المال.
- الحب و*رأس المال*: كارل وجيني ماركس وميلاد ثورة، ماري جابريال.
- كارل ماركس والأدب العالمي، س.س. بروور.

العودة للفهرس

كيف نقرأ "رأس المال" لماركس؟[1]

لويس ألتوسير

النص الأصلي اضغط هنا

ترجمة: وسام منير

مراجعة: قسم الترجمة

ظهر "رأس المال" منذ قرن مضى (في ١٨٦٧)، وما يزال يحتفظ بحيويته بل إنَّه راهني اليوم أكثر من أي وقت مضى. لقد قضى أيديولوجيو البرجوازية (سواء أكانوا اقتصاديين ، أو مؤرخين ، أو فلاسفة) الجزء الأكبر من القرن الماضي في محاولة دحضه ، وأعلنوا إنَّ نظرياته — قيمة قوة العمل وفائض القيمة وقانون القيمة- ميتافيزيقيات لا علاقة لها بـ"الاقتصاد السياسي". وقد اجتر آخر هؤلاء الايديولوجيين -م. ريمون آرون- الحجج القديمة زاعمًا إنَّه يقدم شيئًا جديدًا (قدم الفيلسوف الإيطالي كروتشه أفضل هذه الحجج التي أعرفها — قبل الحرب العالمية الأولى).



"رأس المال: نقد الاقتصاد السياسي، النسخة الألمانية"

يستطيع العمال الذين قرؤوا "رأس المال" فهمه بسهولة أكبر من كل الاختصاصيين البرجوازيين بغض النظر عن مستوى تعليمهم أو مكانتهم في مجالات محددة. لماذا؟ لأنَّ "رأس المال" يتعامل بكل بساطة مع الاستغلال الرأسمالي وهم (أي العمال — المترجم) ضحاياه. أبرزَ "رأس المال" ورسم آليات هذا الاستغلال — الذي يقضى العمال حيواتهم بأكملها تحته- والأشكال المتنوعة التي تحقق بها البرجوازية هذا الاستغلال —زيادة ساعات العمل ، والزيادة في الإنتاجية ، والزيادة في إيقاع العمل ، وتخفيض الأجور ، والبطالة..إلخ-. ومن ثمَّ ، فإنَّ "رأس المال" —أكثر من أي شيء آخر- هو إنجيلُ طبقتهم.

بعيدًا عن البروليتاريين ، هناك قراءُ آخرون يأخذون "رأس المال" على محملِ الجدِّ — العاملون براتب[2] ، والموظفون ، وبوجه عام القطاعات التي تسمى بـ"العمالة الذهنية" (المعلمين ، والباحثين ، والتقنيين ، والأطباء ، والمهندسين المعماريين..إلخ) ناهيك عن الطلاب الجامعيين وطلاب المدارس الثانوية. كل هؤلاء حريصون على معرفة وفهم آليات المجتمع الرأسمالي لكي يستطيعوا العثور على مساراتهم خلال الصراع الطبقي. يقرأون "رأس المال" — وهو العمل العلمي والثوري في آن والمفسِّر للعالم الرأسمالي. ويقرأون لينين ، الذي أكمل عمل ماركس وفسَّر كيف أنَّ الرأسمالية وصلت أعلى وآخر مراحلها — الإمبريالية.

- **صعوبتان:**

بعد هذا ، يجب أن نضيف إنَّه ليس من السهل للجميع قراءة وفهم "رأس المال". يجب أن نواجه حقيقة أن قراءته تقدم صعوبتان شديدتان — ١) صعوبة سياسية ، وهي الصعوبة الرئيسية ٢) صعوبة نظرية ، وهي صعوبة فرعية. كما قلنا ، الصعوبة الأولى هي الصعوبة السياسية. لكي تفهم "رأس المال" فإنَّه من الضروري إما أن تُحصِّلَ خبرة حية مباشرة للاستغلال الرأسمالي (مثل العمال) أو (مثل المناضلين الثوريين ، سواء كانوا عمالًا أو مثقفين) فتكون قد بذلت الجهد المناسب لتصل إلى "وجهة نظر الطبقة العاملة". وهؤلاء الذين ليسوا عمالًا ولا مناضلين ثوريين — وبغض النظر عن مستواهم التعليمي (مثل "الاقتصاديين" و"المؤرخين" و"الفلاسفة") يجب أن يفهموا أن الثمن الذي يجب دفعه لكي يحققوا هذا الفهم هو ثورة في منظورهم الذي يهيمن عليه بشكل كبير التحيزات البرجوازية والمفاهيم المسبقة.

[1] - الهوامش كلها للمترجم. أعيد طباعة الترجمة من "الماركسية اليوم"Marxism Today، أكتوبر ١٩٦٩، ٣٠٢-٣٠٥، النسخة الأصلية ظهرت أولا بالفرنسية في "الإنسانية " l'Humanité، ٢١ أبريل/نيسان ١٩٦٩.

[2] - تاريخيًا يختلف العاملون بالراتب، salaried workers، عن العمال بالمفهوم التقليدي، ففي حين كان العمال يتقاضون رواتبهم بحساب عدد الساعات، ظهرت مشكلة في القرن التاسع عشر حول العاملين المتميزين الذين يقومون بمهام مهمة وحساسة دون أن يساهموا في رأس المال مثل الإداريين والمحاسبين..إلخ، وعلى هذا الأساس تم توظيفهم بناء على راتب محدد سلفًا يستلمونه كشيك ثابت دون أن يتأثر بعدد ساعات العمل أو الإنتاجية..إلخ، للمزيد اضغط هنا

الصعوبة الثانية هي الصعوبة النظرية. وهي تابعة للصعوبة الأولى ولكنها بالرغم من ذلك صعوبة حقيقية. المعتادون على العمل النظري ، وفوق كل شيء في مجال العلوم النظرية ، وبدرجة أقل في العلوم الدقيقة ("العلوم الاجتماعية" مشوهة بنسبة ٨٠ بالمئة بمنتجات الايديولوجية البرجوازية) قادرون على التغلب على هذه الصعوبات وهذا يرجع إلى حقيقة أن "رأس المال" عمل نظري بحت. والآخرون ، مثل العمال على سبيل المثال ، غير المعتادون على النظري البحت ، يجب أن يقوموا بجهدٍ دؤوب ويعملوا بصبر وانتظام لكي يحققوا تقدمًا نظريًا. سنساعدهم. وسوف نراهم قريبًا قادرين على التغلب على هذه الصعوبة.

كل ما يحتاجون معرفته في الوقت الحاضر هو:

١- أن "رأس المال" عملٌ نظري بحت يتعامل مع نظرية "نمط الإنتاج الرأسمالي ، وظروف الإنتاج والتبادل المناظرة لهذا النمط" (ماركس) وبالتالي "رأس المال" يتعامل مع شيء "مجرد" (شيء لا يمكن لمسه باليد) وهذا يعني أنَّه ليس كتابًا للتاريخ الفعلي أو للاقتصاد الإمبريقي كما ينشد "المؤرخون" و"الاقتصاديون".

٢- إنَّ كل نظرية تتميز بالتجريد والتنظيم المنهجي القوي لمفاهيمها ، وبناء على ذلك فإنَّه من الضروري اكتساب القدرة على التجريد والتنظيم المنهجي. المفاهيم المجردة المنظمة بقوة ليست خيالات فارغة ولكنها وسائل لإنتاج المعرفة العلمية ، تمامًا كما تعدُّ الأدوات والماكينات ومنظوماتها الدقيقة ، وسائلَ إنتاجِ المنتجات المادية (السيارات والطائرات والراديوهات..إلخ).

إذا أُخِذ ما سبق في الاعتبار ، فإنَّ الأفكار العملية الأولية القادمة بخصوص قراءة المجلد الأول قد تكون مفيدة.

أعظم الصعوبات –النظرية وغير النظرية- لسوء الحظ (أو ربما لحسن الحظ) التي تقف في طريق قراءة المجلد الأول بسهولة هو ما تجده مباشرة في بداية الجزء الأول ، وبشكل أكثر تحديدًا الفصل الأول من الجزء الأول ، والذي يتعامل مع "السلع والنقد". ومن ثم فإنَّ نصيحتي هي البدء بقراءة الجزء الثاني من المجلد الأول المعنون ب "تحول النقد إلى رأسمال".

من وجهة نظري ، يستحيل البدء (والبدء فقط) في فهم الجزء الأول بدون قراءة وإعادة قراءة المجلد الأول كله بداية من الجزء الثاني فصاعدًا.

إنَّها أكثر من مجرد نصيحة ، إنَّني اعتبرها توصيةً إلزامية. وكل شخصٍ يستطيع التأكيد عليها بخبرته العملية.

لو بدأ المرء بقراءة المجلد الأول من بدايته ، من الجزء الأول ، فمن المحتمل أنّه سيعلَق فيه وربما يميل للاستسلام. أو سيظن أنّه استوعبه ، وهذا في الحقيقة أسوأ. فقد ينتهي الأمر بفهم مختلف عما يحاول المرء فهمه.

تبدو الأشياء واضحة من الجزء الثاني (تحول النقد إلى رأسمال) فصاعدًا. فالقارئ الآن قادر على النفاذ عن حق في جوهر وقلب المجلد الأول.

فها هو قانون فائض القيمة والذي يستطيع العمال أن يفهموه بدون أدنى صعوبة ، لإنَّه بكل بساطة يشكل النظرية العلمية للقوة التي يختبرونها بأنفسهم كل يوم ، أعني الاستغلال الطبقي.

لدى الجزء الثالث والرابع -الثقيلين جدًا ولكن الواضحين جدًا- أهمية حاسمة في الصراع الطبقي اليوم. إنَّهما يتعاملانِ مع الشكلين الأساسيين لفائض القيمة ، ومن خلالهما يستطيع الرأسماليون الوصول إلى أقصى استغلال ممكن للطبقة العاملة — ما سماه ماركس فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبي.

فائض القيمة المطلق (انظر الجزء الثالث) مرتبط بطول يوم العمل. يوضح ماركس: إنَّ الطبقة الرأسمالية تكافح بعناد لإطالة يوم العمل بأقصى قدر ممكن ، وإنَّ أحد أهداف نضال الطبقة العاملة لأكثر من قرن كان تأمينَ يوم عملٍ أقصر.

المراحل التاريخية لهذا الصراع العنيف معروفة جيدًا. كان يوم العمل ١٢ ساعة في اليوم ، ثم أصبح ١٠ ساعات ، ثم ٨ ساعات ، وفي النهاية في زمن الجبهة الشعبية[٣] عام ١٩٣٦ أصبح ٤٠ ساعة في الأسبوع (٨ ساعات في اليوم و٥ أيام عمل في الأسبوع — المترجم). ومن المعروف جيدًا ، للأسف ، أن الطبقة الرأسمالية تستخدم كل قوتها وكل الوسائل المتاحة –القانونية وإلى حد كبير غير القانونية أيضًا- لإطالة يوم العمل الفعلي (الساعات التي يبذل فيها عمل بالفعل) ، حتى عندما أُجبِروا على تحديد يوم العمل قانونيًا كنتيجة

[٣] - الجبهة الشعبية هي ائتلاف واسع لتجمعات سياسية مختلفة، تتكون عادة من اليساريين والوسطيين. نظرا لكون الائتلاف واسعا، فإنَّها يمكن إنَّ تشمل في بعض الأحيانً قوى وسطية وليبرالية (أو "برجوازية") فضلا عن جماعات اشتراكية ديمقراطية وشيوعية. ظهرت تاريخيا في ١٩٣٠ بهدف محاربة الفاشية والقضاء عليها.

للقوانين التي اكتسبت بفعل نضال الطبقة العاملة الواسع النطاق (على سبيل المثال ما حدث في ١٩٣٦).

في الممارسة الفعلية، يتراوح أسبوع العمل بين ٤٥ إلى ٥٤ ساعة، كما إنَّ أصحاب العمل اكتشفوا خدعة "ساعات العمل الإضافية". وهناك أيضا ما يسمى "العمل الأسود"[٤] خلف ساعات العمل الاعتيادية.

أمّا بخصوص "ساعات العمل الإضافية" فإنَّه بحسب الاتفاق يتم دفع نسبة أعلى من الراتب العادي بنسبة ٢٥% أو ٥٠% أو حتى ١٠٠%. وقد يبدو هذا للوهلة الأولى كشيء مكلف جدًا لأصحاب العمل. ولكنه في الحقيقة مربح جدًا بالنسبة لهم، حيث تسمح للرأسماليين بجعل ماكيناتهم الغالية تعمل بطاقة ٢٤ ساعة في الـ٢٤ ساعة مما يجعل الماكينات تُستهلك بأسرع وقت ممكن (تمرر أكبر قدر ممكن من قيمتها في المنتجات – المترجم) قبل أن يعفى عليها الزمن بواسطة الماكينات الأحدث والأكثر فاعلية والتي تنتجها التكنولوجيا الحديثة بلا توقف. أما بالنسبة للعمال، فساعات العمل الإضافية ليست إلا هدايا أصحاب العمل لهم. وهذه الهدايا تعني شيئًا إضافيًا للعمال يمكنهم فعله (أو الحصول عليه بها – المترجم)، ولكنها تُدمِّر صحتهم. ساعات العمل الإضافية، وبرغم مظهرها الخدَّاع، ليست أكثر من استغلال إضافي للعمال.

ولنكمل الآن للجزء الرابع (إنتاج فائض القيمة النسبي). وهو مسألة ملحة جدًا.

فائض القيمة النسبي هو الشكل الرئيسي للاستغلال هذه الأيام. إنَّه أكثر مكرًا بكثير. وقد لازم ازدياد استخدام الماكينات في الصناعة (والزراعة) وما ترتب على ذلك من زيادة في الإنتاجية. وهذه الزيادة في الإنتاجية (والتي أصبحت زيادة مذهلة خلال آخر ١٠ – ١٥ سنة) لم تكن فقط نتيجة إنتاج المزيد والمزيد من الماكينات المعقدة والتي جعلت من الممكن إنتاج نفس الكمية من السلع في نصف أو ثلث بل وفي ربع الوقت التي كانت تستغرقه فيما مضى ولكن أيضا بسبب التكثيف في سير العمل[٥].

ناقش ماركس كل هذا في الجزء الرابع وحدد آليات الاستغلال التي تنطوي عليها زيادة الإنتاجية في أشكالها الملموسة. وبرهن على أن الزيادة في الإنتاجية لا تفيد الطبقة العاملة تلقائيًا طالما إنَّ نتيجتها على وجه التحديد هي زيادة استغلالهم.

ما ينبغي أن يفعله العمال هو نفس ما فعلوه فيما يتعلق بساعات العمل، عليهم القتال ضد الأشكال المميزة للاستغلال المرتبط بالإنتاجية ليضعوا حدًا لتأثيرات هذه الأشكال (النضال ضد ارتفاع كثافة العمل، النضال ضد إلغاء وظائف معينة، أو بعبارة أخرى، النضال ضد التخلص من العمالة التي تسببها زيادة الإنتاجية..إلخ). يوضح ماركس بشكل قاطع لا يقبل الجدل إنَّ العمال لا يمكن أن يأملوا في الاستفادة دائمًا من الزيادة في الإنتاجية قبل أن ينتزعوا هم وحلفاؤهم السلطة، وحتى ذلك الوقت فكل ما يمكنهم فعله هو القتال لوضع حدٍ لتأثيراتها بالقتال ضد استغلالهم، وهو ما يشكل جزءً من الصراع الطبقي الحاد الذي يشنونه.

يمكن للقارئ عند الحاجة أن يُسقط الجزء الخامس (إنتاج فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبي) في الوقت الحالي - فهو تقني جدًا – وينطلق مباشرة إلى الجزء السادس والذي يُعنى بالأجور.

- **الصراع الطبقي والإنتاجية:**

يشعر العمال هنا أيضا كما لو أنَّهم في منازلهم، حيث يتجاهل ماركس الخدعة البرجوازية التي تؤكد أن "عمل" العمال يُدفع مقابله وفقًا لقيمته، ويفحص الأنواع المختلفة لمعدلات الأجور – الدفع بالمدة، والدفع بالقطعة..إلخ- وهي أفخاخ وضعتها البرجوازية لتضليل العمال وإضعاف إرادتهم في خوض الصراع الطبقي.

يدرك العمال في هذا الجزء أن مسألة الأجور، أو مسألة "مستوى المعيشة"[٦] كما يقول أيديولوجيو البرجوازية، في التحليل الأخير، هي مسألة الصراع الطبقي (أي ليس مسألة زيادة "الإنتاجية" التي يستفيد منها العمال بشكل "طبيعي").

سيدرك العمال بعد الإنتهاء من الجزئين الثاني والسادس أن نضالهم الاقتصادي لا يمكن أن يكون إلا صراع طبقي ضد الشكلين الأساسيين للاستغلال واللذان يشكلان نزعة لا مفر منها في النظام الرأسمالي، وهما:

---

[٤] - العمل الأسود هو العمل الذي يقبض عامله نصيبه فوريا ولا يسجل قانونيًا وبالتالي لا يدفع الرأسمالي عليه ضرائب ولا يخضع لأي قوانين تنظيم العمل وبالتالي ليس للعامل فيه أي حقوق. وهو وضع شبيه بعمالة اليومية في مصر.

[٥] - سير العمل هو سلسلة من العمليات المتصلة على خط الإنتاج، حيث تتبع كل عملية السابقة وتكملها دون تأخير أو إبطاء وتسلمها للعملية اللاحقة. للمزيد اضغط هنا

[٦] - مستوى المعيشة مصطلح يشير في الاقتصاد البرجوازي إلى مستوى الثروة والراحة والسلع المادية والضروريات المتاحة لفئة اجتماعية معينة أو منطقة جغرافية معينة. للمزيد اضغط هنا

١- الزيادة في يوم العمل.
٢- الاقتطاع من الأجور.

ولذلك فإنَّ الهدفين الأساسيين (والشعارات) للنضال الاقتصادي الذي تخوضه الطبقة العاملة يعارضان مباشرة أهداف النضال الذي تخوضه الطبقة الرأسمالية، وهي موجهة ضد:

١- أيُ زيادةٍ في طول يوم العمل.
٢- أيُ اقتطاعٍ من الأجور.

على الرغم من تأكيدي على أن جوهر النضال الاقتصادي الذي تخوضه الطبقة العاملة هو النضال ضد زيادة ساعات العمل وضد الاقتطاع من الأجور، فإنَّه يجب الانتباه إلى المبادئ الثلاثة الأساسية التالية:

(١) ينشر الإصلاحيون الوهم الساعي إلى جعل الناس تعتقد بإمكانية الحصول على زيادة في الأجور ببساطة لإنَّ الإنتاجية تزداد. هذا يموّه النزعة الحتمية في الرأسمالية لتخفيض الأجور. ويجب على الشيوعيين توضيح ذلك لزملائهم في العمل. في الرأسمالية، جميع الصراعات المتعلقة بالأجر موجهة ضد هذه النزعة. وبالطبع، لا حاجة بنا إلى القول إنَّ الصراع ضد تخفيض الأجور هو في نفس الوقت صراع من أجل زيادة الأجور الحالية.

(٢) يسعى الإصلاحيون إلى إخفاء الحقيقة لإنَّهم يريدون من الصراع الطبقي أن يتلاشى من الوجود. الصراع ضد زيادة ساعات العمل وضد الاقتطاع من الأجور لا يتعلق موضوعه بالزيادة الإنَّتاجية وإنَّما بمسألة الصراع الطبقي –وفي هذه الحالة الصراع الطبقي على الجبهة الاقتصادية.

(٣) الصراع الاقتصادي محدود لإنَّه في النهاية صراع دفاعي ضد النزعة المحتومة للرأسمالية لزيادة الاستغلال الاقتصادي. الصراع الوحيد الذي تخوضه الطبقة العاملة والذي يمكن أن يحوّل الصراع الاقتصادي الدفاعي (ضد التعجيل والتكثيف في إيقاع العمل، ضد الاقتطاع من الأجور، ضد التخلص من العمالة، ضد تحديد العلاوات بشكل تعسفي) إلى صراع هجومي يتم عن طريق صراع الطبقة العاملة على المستوى السياسي. هذا الصراع السياسي الذي تخوضه الطبقة العاملة له هدف نهائي "الثورة الاشتراكية". وهذا الصراع السياسي يشمل الصراع الاقتصادي، وهذا بالضبط نوع الصراع السياسي الذي يشنه الشيوعيون –الصراع من أجل الثورة الاشتراكية.

كل هذا مشغول بإتقانٍ ووضوح في "رأس المال" بالرغم من أنه لم يتم معالجة الفرق بين الجانب الاقتصادي والجانب السياسي من الصراع الطبقي بشكل تفصيلي، ولكنه عُولِج بوضوح تام من قبل أتباع ماركس وعلى رأسهم لينين (في كتابه "ما العمل؟") ومن قبل جميع القادة الثوريين (يشدد موريس ثوريز[٧] دائمًا على هذا). لا يمكن أن يوجد منظور ثوري بدون أن يصبح الصراع السياسي في الصدارة بدلًا من الصراع الاقتصادي البسيط. لأنَّ الصراع الاقتصادي بدون السياسي يؤدي إلى الاقتصادوية[٨]، أي إلى التعاون الطبقي (بين العمال والرأسماليين – المترجم)، ومن ناحية أخرى، يؤدي التركيز على النضال السياسي مع إهمال وازدراء النضال الاقتصادي إلى الإرادوية[٩]، أي المغامرة.


موريس ثوريز (1964-1900)

يجب خوض الصراع الطبقي على نطاق قومي، مع مراعاة الظروف الخاصة بالوضع المعين في المجتمع المعين، ولكن في نفس الوقت أيضًا، كجزء من صراع الطبقة العاملة العالمي.

- **المجازر و"كرات الثلج":**

بعد الجزء السادس، المتعلق بالأجور، على القراء الذهاب إلى الجزء السابع (عملية تراكم رأس المال)، وهو واضح جدًا. يشرح ماركس هنا كيف تنزع الرأسمالية بلا توقف إلى تحويل فائض القيمة المستخرج من العمال إلى رأس مال. رأس المال لا يتوقف أبدًا مثله مثل "كرة الثلج"، أي يعيد إنتاج نفسه على نطاق متزايد باستمرار من أجل استخراج المزيد من فائض العمل (فائض القيمة) من العمال.

وضحت هذه الأطروحة بشكل رائع ببريطانيا كمثال ملموس خلال السنوات ١٨٤٦ – ١٨٦٦. وأظهر لينين أنه بنهاية القرن

[٧] - موريس ثوريز شيوعي فرنسي، تزعَّم الحزب الشيوعي الفرنسي من ١٩٣٠ وحتى وفاته.
[٨] - الاقتصادوية اتجاه ظهر في بدايات تأسيس حزب العمل الديموقراطي الاجتماعي الروسي، تصدى له لينين في كتابه "ما العمل؟" وبين خطورته وخطورة التهاون معه.
[٩] - الإرادوية اتجاه في الحركة الثورية الروسية لم يكترث بتحديد الظروف الموضوعية (الوضع الاقتصادي والتاريخي) كأساس لنضاله وتصور أن المسألة مشروطة بعمليات إرهابية تستحث الجماهير، خاض لينين ومن قبله بليخانوف جدالات كثيرة لتبيان خطورة موقفهم على الثورة وعلى الجماهير.

التاسع عشر ، أخذت إعادة الإنتاج هذه شكل الإمبريالية – اندماج رأس المال الصناعي والمصرفي ليكوّنا رأس المال المالي والاستغلال الرهيب المباشر "لبقية العالم" في شكل الاستعمار وإطلاق العنان للحروب الاستعمارية ، ثم الحروب بين الإمبرياليات –التي أظهرت للجميع بأوضح طريقة ممكنة أن الإمبريالية قد دخلت الآن مرحلة سكرات الموت ، وأدت الحربان العالميتان من بين عدة أمور أخرى للثورة الروسية في ١٩١٧ –تأسيس الديموقراطيات الشعبية (يقصد السوفييتات – المترجم) – وبعد ذلك الثورة الصينية في ١٩٤٩.

يحتوى الجزء الثامن (التراكم البدائي) –والذي يختتم به المجلد الأول- اكتشافًا على قدر عظيم من الأهمية. يفجر ماركس فيه التعمية البرجوازية المتعلقة بولادة الرأسمالية والتي تسعى إلى شرح ذلك بتقتير الرأسماليين الأوائل الذين عملوا بجدٍ وأدخروا أموالهم بهدف تزويد أنفسهم برأس المال الأولي والأساسي. وضح ماركس أنه في الحقيقة بدأت الرأسمالية بالتطور في الدول الغربية بعد أن حدث تراكم ضخم للثروة في أيدي أبناء الطبقات العليا ، وكان هذا التراكم نتيجة الوحشية لقرون من الغارات والقرصنة والسلب والنهب والاغتصاب والمجازر الدموية بحق شعوب بأكملها (على سبيل المثال ، المنحدرين من الإنكا وغيرهم من سكان البيرو الرائعة والغنية بمناجم الذهب).

هذه الأطروحة الماركسية التي تخص أصول الرأسمالية ما تزال إلى اليوم حقيقة باهرة. لإنَّه إذا كانت الرأسمالية تعمل اليوم في "بلدان المركز" بدون مجازر ، فإنَّها تواصل نفس أساليب اللصوصية والسرقة والعنف والمجازر في "الأطراف" ، في هذه البلدان التي تسمى ب"العالم الثالث" – أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. والمجازر التي ارتكبها الأمريكيون في فيتنام تثبت اليوم ما كتبه ماركس عندما كان يصف أصول الرأسمالية في الجزء الثامن من المجلد الأول.

لكن الوضع قد اختلف كليًا ، فلم تعد الشعوب تسمح بأن يتم ذبحها ، وهي قد بدأت بالانتظام والدفاع عن نفسها ؛ لإنَّه -من بين عدة أسباب- قام ماركس ولينين وأتباعهما بتعليم المغاوير الثوريين المقاتلين في الصراع الطبقي. وهذا هو السبب في أنَّ الشعب الفيتنامي سوف ينتصر على أعتى قوة عسكرية في العالم ، والفضل يرجع للحرب الشعبية التي تقاد بمنظمات خلقها الشعب.

إذا أردنا قراءة "رأس المال" علينا قراءة لينين (وبوجه خاص الجزء الأخير من "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية" –بعض الاستنتاجات- والذي يناقش فيه لينين بوجه خاص شروط الثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الغربية). هذا سوف يعلمنا أنه ، في وقتنا الحالي ، سيرى الكثير منا الثورة تحقق انتصارها في بلدنا.

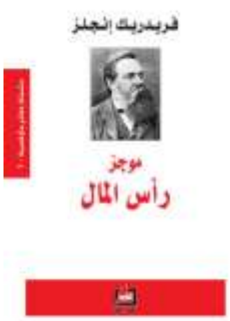
- **قاعدة ذهبية:**

سألخص نصيحتي المتعلقة بقراءة "رأس المال" على النحو التالي:

١- لا تبدأ بالجزء الأول.
٢- أبدأ بالجزء الثاني.
٣- اقرأ الأجزاء الثاني والثالث والرابع والسابع والثامن بانتباه شديد جدًا (أترك الجزء الخامس للقراءة فيما بعد).
٤- حاول بعد ذلك قراءة الجزء الأول نفسه مع العلم أنه صعب للغاية ويتطلب شرحًا مفصلًا (انظر إلى ملاحظته التوضيحية في الأسفل).

أود أن أنصح قُرّاء "رأس المال" بعد هذا بأن يسبقوا دراستهم لتحفة ماركس الخالدة بقراءة الكتابين الصغيرين اللاحقين واللذين يخدمان كمقدمة ممتازة:

١- "العمل المأجور ورأس المال" لماركس (١٨٤٧).
٢- "موجز رأس المال" لإنجلز ، والذي يحدد الأفكار الأساسية الموجودة في المجلد الأول بشكل رائع.



"موجز رأس المال- إصدار دار الفارابي"

وإذا كان المرغوب فيه هو فهم بعض الاستنتاجات الهامة المشتقة من المجلد الأول والمقدمة بطريقة واضحة وسلسة ، أنصح القُرّاء بعد قراءة المجلد الأول أن يقرأوا "الأجور والأسعار والأرباح" لماركس (١٨٦٥). الكتابان الصغيران "العمل المأجور ورأس المال" و"الأجور والأسعار والأرباح" ، وُزع الأول منهما مبكرًا في ١٨٤٧ والآخر فيما بعد في ١٨٦٥. قُدم الأول منهما لجمعية عمالية ، والثاني للمجلس العام للأممية الأولى.

ويستطيع المرء أن يقبض على نوع اللغة التي شعر ماركس ضرورة استخدامها عند توجيه الحديث للعمال ومناضلي الحركة العمالية. عرف ماركس كيف يتحدث ببساطة ووضوح وبشكل مباشر ولكن في نفس الوقت لم يقدم أدنى تنازل فيما يتعلق بالمحتوى العلمي لنظرياته. لقد آمن بأن العمال لديهم الحق في العلم وبأنَّهم قادرون تمامًا على التغلب على الصعوبات العادية الموجودة في أي أسلوب علمي حقيقي. هذه القاعدة الذهبية كانت -وستبقى دائمًا- درسًا لنا جميعًا.

ملاحظة توضيحية عن الجزء الأول من المجلد الأول لرأس المال:

هنا يمكنني فقط تقديم ملاحظة مختصرة حول الصعوبات النظرية التي تمنع القراءة السريعة للمجلد الأول لرأس المال (صحح ماركس المجلد الأول عشر مرات على الأقل قبل أن يعطيه شكله النهائي وهذا ليس بسبب مسألة العرض فقط).

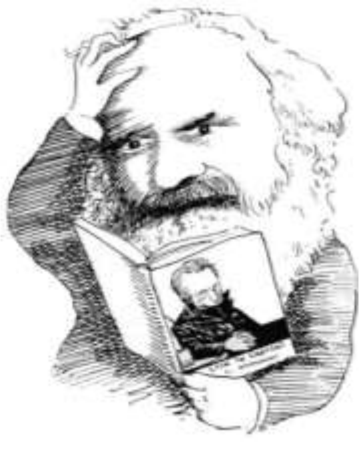
كلمة من نقطتين للمساعدة على التغلب على هذه الصعوبات:

١- لا تُفهم نظرية قيمة قوة العمل إلا كحالة خاصة استخلصها ماركس وإنجلز من قانون القيمة. وهذه الصيغة نفسها — قانون القيمة — تخلق صعوبات.

٢- نظرية فائض القيمة نفسها ليست سوى جانب واحد خاص بنظرية أوسع نطاقًا وهي نظرية فائض العمل والتي توجد في كل المجتمعات ولكن يُستولى عليها في المجتمعات الطبقية. ونظرية فائض العمل هذه لم يتم التعامل معها في صورتها العامة في المجلد الأول. ومن ثم، تتجلى الغرابة الاستثنائية للمجلد الأول باحتواءه حلول لمشكلات لم تطرح إلا في المجلدات الثاني والثالث والرابع (يشير ألتوسير هنا إلى نظريات فائض القيمة باعتبارها "المجلد الرابع" من رأس المال) واحتواءه على مشكلات معينة لا تحل إلا في المجلدات اللاحقة.

ما هو أساسي هو هذا الأثر المزعج من الترقب التي تسببها صعوبات قراءة المجلد الأول من رأس المال. يجب أن يكون المرء على علم بهذا، ويأخذ في الاعتبار أنَّ قراءة المجلد الأول تنبّه إلى وجود المجلدات الثاني والثالث والرابع.

ثانيًا، وهذا ليس قليل الأهمية بأي حال من الأحوال، فإنَّ بعض الصعوبات في المجلد الأول وخاصة المصطلحات في مقاطع معينة في الفصل الأول من الجزء الأول، ونظرية "الفيتيشية" هي من بقايا إرث الهيغلية، بقايا "مغازلته" لهذا الإرث والتي اعترف ماركس بأنَّه إحدى نقاط ضعفه[١٠].



"ماركس يقرأ ألتوسير"
المصدر: thecharnelhouse.org

١٠ - من المثير للاهتمام أن يعتبر ألتوسير الجانب الهيجلي في الماركسية إحدى نقاط ضعفها، فعلى ما نذكر أن مؤسسي الماركسية نفسهم قدروا الهيجلية -وعلى الأخص منهجها "الديالكتيك"- تقديرًا شديدًا. عند لينين مثلًا، في الدفاتر الفلسفية (وهي دفاتر خط فيها لينين ملاحظاته واقتباساته من الفلسفة وبالأخص دراساته لمؤلفات هيجل) قدَّر لينين الديالكتيك الهيجلي بشدة بل رأى أن "ماركس طبق ديالكتيك هيجل في شكله المطوَّر على الاقتصاد السياسي." –الدفاتر الفلسفية، الجزء الأول، الباب الأول: الذاتية، ترجمة إلياس مرقص. واعتبر بالتالي "لا يمكن فهم رأس المال لماركس، وخصوصًا فصله الأول فهمًا كاملًا بدون دراسة وفهم كل منطق هيجل. إذن ما من ماركسي فهم ماركس بعد مضي نصف قرن عليه." –نفس المصدر ونفس الباب. لماذا؟ لأن "الحاصل والخلاصة، الكلمة الأخيرة والجوهر في منطق هيجل هو الطريقة الديالكتيكية. هذا يستحق الاعتبار إلى أقصى درجة. وأيضا ما يلي: في المؤلف الأكثر مثالية لهيجل (يقصد لينين مؤلف هيجل علم المنطق) نجد أقل ما يمكن من المثالية، أكثر ما يمكن من المادية، هذا أمر (متناقض)، لكنه واقع." – نفس المصدر، الباب الثالث: الفكرة. فلماذا هذا الاهتمام بالديالكتيك؟ يعرف إنجلز الديالكتيك بأنه "علم القوانين العامة للحركة و تطور الطبيعة و المجتمع الإنساني و الفكر" – ضد دوهرينج، القسم الأول، ترجمة محمد الجندي وخيري الضامن. وهو الكتاب الذي يمثل قسمه الأول مع كتاب "لودفيغ فورباخ، والفلسفة الكلاسيكية الألمانية"، الفصل الأول منه تحديدًا، شرحًا وافيًا للعناصر التقدمية والثورية التي احتضنتها وأنمتها واستوعبتها الماركسية من الهيجلية في منظومة أرقى. ثم لماذا نستشهد بهؤلاء الماركسيين العظام بدلًا من سماع رأي مبدع "رأس المال" نفسه، افتح المجلد الأول من الرأسمال تجد ماركس الناضج لا الشاب يقول "لقد انتقدت الجانب الصوفي من ديالكتيك هيجل قبل زهاء ثلاثين عاما يوم كان يمثل الموضة السائدة. ولكن بينما كنت اعمل على المجلد الأول من "رأس المال"، راق أنصاف المثقفين، المتغطرسين، التافهين المشاكسين، الذين لهم الكلمة العليا اليوم بين متعلمي ألمانيا، أن يعاملوا هيجل معاملة موسى مندلسون الشجاع لسبينوزا في عهد ليسنغ، أي يعاملوه مثل كلب ميت، لذلك أعلنت نفسي جهارًا تلميذًا لهذا المفكر الجبار..." –رأس المال، المجلد الأول، تعقيب ماركس على الطبعة الألمانية الثانية، ترجمة فالح عبد الجبار. فلماذا يوبخ ماركس (الذي يعترف صراحة أنه تلميذ هيجل) كل من ألقى بهيجل (المثالي، عدو المادية، نقيض الماركسية..إلخ) في القمامة؟ يجيب ماركس: لأنه "...على الرغم من أن الديالكتيك قد عانى على يد هيجل من الصوفية. فإنَّ ذلك لم يمنع هيجل من أن يكون أول من عرض الأشكال العامة للديالكتيك بأسلوب شامل وواع...". وفي النهاية فلنتذكر هذا، إنَّ برنشتاين بدأ بخيانة الماركسية متعللًا بنقد المخلفات الهيجلية فيها، وتحديدًا، نقد الديالكتيك.



لمفكر الماركسي سمير أمين- المصدر: شبكة الإنترنت

العودة للفهرس

قراءة *رأس المال*، قراءة الرأسماليات التاريخية

تأليف: سمير أمين
رابط النص الأصلي: اضغط هنا
ترجمة: سيف
مراجعة: قسم الترجمة

١

يقدم *رأس المال* تحليلًا علميًا غايةً في الدقة لنمط الإنتاج الرأسمالي والمجتمع الرأسمالي، وفيما يختلفان عن الأنماط السابقة لهما. فيتحرّى المجلد الأول لبَّ المسألة، ليبيّن مباشرةً دلالة تعميم التبادل السلعي بين أصحاب الملكية الخاصة (وهذه السمة محصورةٌ على عالم الرأسمال الحديث، وإن تواجد التبادل السلعي في مرحلةٍ أسبق)، وبالأخص ظهور وهيمنة القيمة والعمل الاجتماعي المُجرَّد. على هذا الأساس، يقودنا ماركس إلى فهم كيف أن بيع العامل لقوة عمله/ها إلى "رجال المال" يضمن إنتاج فائض القيمة الذي ينتزعه الرأسماليّ، والذي يُعَدّ بدورِه، شرط تراكم رأس المال. إن هيمنة القيمة لا تحكم فحسب إعادة إنتاج النظام الاقتصادي للرأسمالية، إنها تحكم كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية الحديثة. ومفهوم الاغتراب يضيء على الآلية

الأيديولوجية التي تتجلى عبرها الوحدة الكلية لإعادة الإنتاج الاجتماعي.

يستعرض المجلد الثاني لما وكيف يعمل تراكم رأس المال، وبصورةٍ أكثر تحديدًا، لما وكيف لهذا التراكم أن يدمج بنجاحٍ استغلالَ العمل في إعادة إنتاج ذاته وتجاوز تأثيرات التناقض الاجتماعي الذي يمثله. إن التقسيم الملائم للعمل الاجتماعي بين إنتاج وسائل الإنتاج وإنتاج السلع الاستهلاكية يضمن الاتزان الكليَّ بين عرض وطلب البضائع والخدمات المنتَجة حصريًا ضمن سياق النظام الرأسمالي للعلاقات الاجتماعية. من جهتي، فقد حاججت خصيصًا بأن:

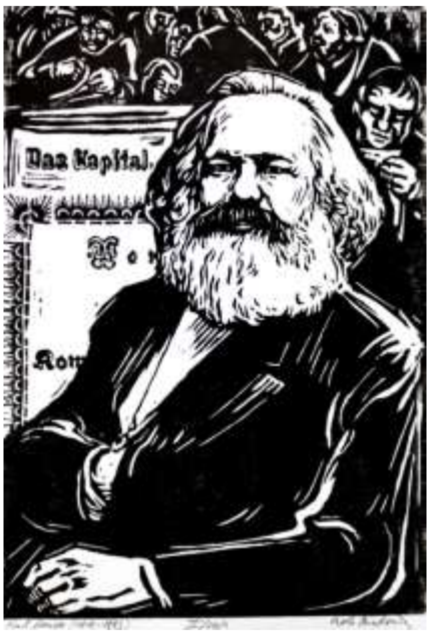
١- آلية التراكم تتطلب ائتمانًا مُسبقًا يمكن تحديد حجمه على أساس معدلات النمو في إنتاجية العمل الاجتماعي لكل من قطاعيّ الإنتاج المَعنِيَّين (وكان هذا ردي على تساؤل روزا لوكسمبورج المطروح بشكلٍ رديء حول تحقيق فائض القيمة)

٢- تحقيق التوازن الدينامي للنمو يستلزم زيادة الأجر الفعلي (قيمة قوة العمل) بمعدلٍ يمكن احتسابه على أساس نمو الإنتاجية.

٣- النموذج المعروض في المجلد الثاني لا يتيح لنا أن نقول شيئًا بشأن ميل معدل الربح إلى الانخفاض. (*قانون القيمة المعولمة*- الفصل ١).

المجلدان الأول والثاني من ***رأس المال***، معًا، لا يوفران معلوماتٍ محدَّدة عن تاريخ ظهور الرأسمالية التي يحللانها. كما أشار ماركس نفسه، فإن هدفه هو تقديم تحليلٍ لجوهر الرأسمالية، "متوسطها النموذجي". لم يتعرض، حينها، للعلاقات بين النطاق الذي يتحكم فيه هذا النمط الرأسمالي (المجال الوحيد الذي قام بتحليله في الجزئين) ومجالات الإنتاج الاجتماعي الأخرى، السابقة على أو المزامِنة لوجود الرأسمالية التاريخية الملموسة، في إنجلترا أو غيرها.

يُمكِّن هذا التركيز على نمط الإنتاج الرأسمالي ماركس من تبيان كيف أن هذا النمط هو الأساس لـ"علمٍ اقتصاديّ" يقدم تحديداً للشروط اللازمة للتوازن العام بين عرض وطلب السلع الرأسمالية، وكيف يرفع النمط الرأسمالي هذا العلم باعتباره الشكل المُهيمِن الجديد من الفكر الاجتماعيّ. الاستلاب السلعي هو سرُّ هذا الانتصار. إنه يقلب العلاقات بين النموذج الاقتصادي، الذي يغدو مهيمِنًا، وبين النماذج السياسية والأيديولوجية، التي تفقد بالتبعية هيمنتها المميَّزة التي حازتها في مجتمعاتٍ أسبق. هذا هو مضمون قرائتي للعنوان الفرعيّ لـ ***رأس المال*** ("نقد الاقتصاد السياسي"): قراءةٌ تكشف مكانةَ الاقتصاد السياسي في الفكر الاجتماعي الحديث.



كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)- المصدر: شبكة الإنترنت

يختلف المجلد الثالث من ***رأس المال***. فيه ينتقل ماركس من تحليل الرأسمالية في جوانبها الجوهرية ("متوسطها النموذجي") إلى تحليل الواقع التاريخي للرأسمالية. يقوم بذلك جزئيًا فحسب عبر تناول ثلاث مجموعاتٍ من الأسئلة. المجموعة الأولى تتعلق بريع الأرض، ألا وهو حق المُلاَّك العقاريين في جزءٍ من فائض القيمة المُنتَج بواسطة الاستغلال الرأسمالي للعمل. إننا نغوص هنا في قلب السؤال المتعلق بتاريخ ظهور الرأسمالية التاريخية. الرأسمالية لم تسقط من السماء إلى أرضٍ بِكر. لقد تشكّلت ضمن صراعها مع المجتمع الإقطاعي المُصاحِب للنظام القديم ***ancien régime*** [النظام الأرستقراطي، السياسي والاجتماعي الذي نشأ في فرنسا في

الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر-المترجم] في إنجلترا، وفرنسا وعددٍ من بقاع أوروبا. يمكن العثور على آثارٍ هذا الصراع في التشكيلات الرأسمالية (خلافًا لنمط الإنتاج الرأسمالي) التي تواجدت في عصر ماركس.

المجموعة الثانية تتعلق بالتساؤلات حول النقد كسلعة (سلعة النقد -المعادل العام في عملية التبادل- والائتمان، الذي تمثل سلعية النقود سنَدَه). على قاعدة هذا التحليل، يبرز التمييز بين الفائدة على النقود (ومعدَّلِها) وأرباح رأس المال. وهو تَتِمَّة ملازمة لتحليل نمط الإنتاج الرأسمالي (تَتِمَّة لما أسهم به المجلدان الأول والثاني في هذا التحليل) إلى جانب أنه مَدخلٌ للأبحاث التاريخية. بهذا الصدد، يعرض ماركس ملاحظاتٍ عدّة حول إدارة النقود من قِبل بنوك إنجلترا وفرنسا وحول النظريات التي أسلفها آخرونَ في هذا الحقل.

تُركِّز المجموعة الثالثة على دورات وأزمات التراكم، مفحوصةً ضمن السياق التاريخي الملموس لإنجلترا وأوروبا في تلك الفترة. أحيل القارئ هنا إلى ما كتبته حول تحليل ماركس لتلك التساؤلات، في بُعدها النظري العام وصِيَغِها التاريخية العيانية (*قانون القيمة المعولمة* - الفصل ٢، ٣). مع ذلك، نلاحظ في المجلد الثالث غيابَ تحليلٍ منهجيٍّ لمجموعتين من التساؤلات الرئيسية: أولًا، الطابع الخاص للصراعات الطبقية في نمط الإنتاج الرأسمالي والرأسماليات التاريخية، إضافةً إلى التفاعل بين تلك الصراعات وعملية التراكم؛ وثانيًا، العلاقات العالمية الجديدة المميّزة للرأسماليات التاريخية، متضمِّنةً نزوع الرأسمالية للعولمة، والتفاعل بين تلك العلاقات العالمية المميَّزة والصراعات الطبقية وعملية التراكم. يقدم ماركس ملاحظاتٍ متفرقةً وحسب في هذا الموضوع.

٢

الانتقال من قراءة *رأس المال* (وخاصةً المجلدين الأول والثاني) إلى قراءة الرأسماليات التاريخية في فترات انتشارها المتعاقبة له متطلباته اللازمة، التي تتعدى قراءة أعمال ماركس وإنجلس. دائمًا ما عبّر المنظِّرون والناشطون الماركسيون عن إعجابهم بكتابات ماركس وإنجلس، وجعلوا قراءتهم لهذه الكتابات معترَفًا بها، سواء كان هذا بشكلٍ صريحٍ أو ضمنيّ، مُستلهمينَ منها في ردهم على التحديات التي يواجهونها في نضالاتهم. لا أنتوي هنا مراجعةَ هذه القراءات المتنوِّعة، بل صياغة ما أراه —وفق قراءتي للرأسماليات التاريخية— جديرًا بالحِفظ والدراسة من قِبل كل هؤلاء —الماركسيين وغيرهم— الذين يؤمنون بـ "ضرورة عالمٍ آخرَ، أفضل".

القراءة التي اقترحتها لـ *رأس المال* أعلاه يشاركني فيها بالتأكيدِ آخرون. بيد أنها ليست القراءةَ الغالبة بين التيارات السائدة من الماركسيات التاريخية في الأمميتين الثانية والثالثة. تضمَّن نجاح الماركسية في الدوائر الثورية المعارِضة للرأسمالية بالضرورةِ، قدرًا من التبسيط لترويجها. أنتج كاوتسكي أولَ ما يمكن اعتباره كُتيِّب إرشاداتٍ للماركسية، وهو ما قام الماركسيون السوفييت بتبسيطه بدرجةٍ أكبر. على عكس تلكم الملخصات، استعادت بعض الأعمال الماركسية، ما أراه المكانةَ المُستحَقَّة لـ *رأس المال*. يظل الأمر، مع هذا، أن دارسي الماركسية دائمًا تقريبًا ما يُفضلون التخريجات على حساب المقابلة بين النظرية والواقع.

الوعي بنقطة الضعف المزدوجة هذه -التبسيط والشروح— يترتب عليه تيسير إدراك الأسباب وراء ملمح التخلي عن الماركسية المميِّز لعصرنا. يحلل *رأس المال* رأسمالية القرن التاسع عشر الإنجليزية وقراءته لا تسمح لنا بفهم طبيعة الرأسمالية المعاصرة. لذا تُوصف كتابات ماركس بأنها "باليَة". هذا ليس رأيي- لا لأني أعدُّ ماركس نبيًّا معصومًا، بل ببساطة لأن *رأس المال* يمكِّننا من القبض على الأسس الرئيسية للرأسمالية وراء أشكالها التاريخية وتطورها. بهذا المعنى، فإن قراءة رأس المال ستستمر في منحنا التوجيه اللازم لاستيعاب تنوع الأشكال الذي يظهر به تاريخ الرأسمالية، ولا شيء أكثر. يظل من الضروري تفسير الرأسمالية التاريخية، الشيء الذي لا يتوفر في *رأس المال*.

الوعي بنقطة الضعف المزدوجة هذه -التبسيط والشروح- يترتب عليه تيسير إدراك الأسباب وراء ملمح التخلي عن الماركسية المميِّز لعصرنا.

هل سنجد مثل هذا التفسير في موضعٍ آخر من كتابات ماركس وإنجلس الأخرى، ربما جزئيًا في المجلد الثالث من رأس المال؟ أعتقد أن الجواب على هذا السؤال هو لا. بالتأكيد، كرّس ماركس العديد من كتاباته لتحليل الرأسماليات التاريخية في عصره. لقد فحص الصراعات السياسية والاجتماعية المعقدة التي امتدت عبره، دون أن يختزلها إلى الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية. لقد أدرك أهمية النزاعات مع الأرستقراطيات في *الأنظمة القديمة* في إنجلترا وفرنسا، ولكن أيضًا في أماكن أخرى من أوروبا (ألمانيا، روسيا، وغيرها). لقد أعطى الاعتبار الكامل لصراعات الفلاحين وموقعهم في تشكيل الرأسماليات التاريخية. ومنح أهميةً تامةً للاختلافات بين الطرق التي أُديرت بها الحياة السياسية في مختلف الدول، مُبرزًا الفروق الدقيقة في تعبيراتهم الأيديولوجية. حتى أنه اكتشف التناقضات بين الدول الرأسمالية الناشئة وفتوحاتها الاستعمارية.

وبالروح ذاتها، تطرّق ماركس إلى الأصول والنشأة التاريخية الملموسة للرأسمالية في إنجلترا، أوروبا الغربية، والولايات المتحدة. فضلًا عن ذلك، بدأ بدراسة الرأسمالية الاستعمارية في أوروبا الشرقية والأمريكتين. لأنه وعلى وجه التحديد كان يفهم بصورةٍ أفضلَ من أي شخصٍ ما الذي يحدد طبيعة الرأسمالية (المجلدان الأول والثاني من *رأس المال*) فقد تمكن من فهم أهمية التغيرات الواقعة في المجتمعات الأسبق، تلك التي سمحت بظهور الرأسمالية التاريخية في بعض الأماكن وحالت دون ذلك في بعضها الآخر.

قراءة كل هذه الكتابات الثاقبة دائمًا ما تكون منعشةً وملأى بالتبصُّرات. بيد أنها ليست كافيةً لسببين. أولًا، لأن كل هذه المقترحات التي يمكن تعريفها على أنها لبِناتٌ لبناء قراءةٍ ماديةٍ للتاريخ تظل -وستظل- خاضعةً لقراءاتٍ نقديةٍ متعاقبةٍ في ضوء التقدم في معرفتنا بالماضي. مرةً أخرى، ماركس ليس نبيًا معصومًا عن أي خطأٍ محتمَل. السبب الثاني الأكثر أهميةً: الرأسمالية التاريخية تطورت باستمرارٍ وتحولت إلى ما يتجاوز ماركس. الجديد لم يكتبه ماركس. بل يجب اكتشافه.

لست بالتأكيد الأولَ، أو الوحيدَ، الذي اعتمد هذا النهج لمتابعة العمل الذي بدأه ماركس. الاشتراكيون الديموقراطيون، لينين، ماو، والعديد من المُنظِّرين الماركسيين (مثل باران وسويزي) قد تشاركوا هذا الاتجاه. لن أذكر هنا المُنظِّرين غير الماركسيين أو حتى المناهضين للماركسية الذين كرسوا جهدهم أيضًا لهدف تحليل الواقع المعاصر، سواء وصفوه بالرأسمالية أم لا. مرةً أخرى، لن أراجع هذه التفسيرات المختلفة للعالم المعاصر، لكن سأعرض فقط وجهة نظري حول المسألة.

٣

يجدر بالتحليل السابق أن يسمح للقارئ بوضع قراءتي للرأسمالية التاريخية موضعَها بالنسبة إلى ماركس والماركسيات التاريخية. أنوي أن أوضح تفسيري فيما يلي، مع التركيز على الرأسمالية المعاصرة، وأزمتها النظامية، والاستجابات المحتمَلة لتلك الأزمة.

أعتقد أنه من المفيد هنا أن ألخص بإيجاز تفسيري لظهور الرأسمالية التاريخية (في أوروبا) (*الطبقة والأمة*). لقد رفضت نظرية المراحل الخمس للتاريخ العالمي (المشاعية البدائية، العبودية، الإقطاعية، الرأسمالية، الاشتراكية) وكذلك "نمط الإنتاج الآسيوي" الذي يدعمه عددٌ من مدارس الماركسية التاريخية. بعد أن عرّفت الإقطاع بأنه شكلٌ غير مكتملٍ (طرفي) من عائلة أنماط الإنتاج الخراجية، قمت بتأسيس توضيحيٍّ للظهور المبكر للرأسمالية الأوروبية، التي فرضت نفسها بعدها على العالم، على مفهوم التنمية غير المتكافئة (مُهِّدت الطريق بسهولةٍ أكبر للتطورات الجديدة في أطراف النظام مقارنةً بمراكزه). كما تضمنت الأنظمة الخراجية الأكثر تقدمًا (المركزية) الشروط المسبقة لظهور الرأسمالية (على عكس التحيز الأوروبيّ التمركز). لقد بدا لي أن فشل الموجات الأولى للحركة في هذا الاتجاه (الصين، الشرق الأدنى، المدن الإيطالية) هو تعبيرٌ عن قاعدةٍ عامة في التاريخ البشري: الجديد لا يظهر فجأةً وبأعجوبة، الطريق إلى الجديد مفروشٌ بالعوائق عبر سلسلةٍ من التقدم والانسحاب. الشيء نفسه يصح على التجاوز الضروري والممكن للرأسمالية. لا أعتقد أنه يمكن العثور على حُجَّتي حول التنمية غير

المتكافئة عند ماركس، الذي يبدو باستمرارٍ غير حاسمٍ بشأن هذه المسألة. إن قراءتي لـ *Formen die der Kapitalistichen Produktion vorhergehen* (التشكيلات الاقتصادية ما قبل الرأسمالية) تركتني غير راضٍ. رؤيتي العامة للمادية التاريخية (لاحظ أنني أقول "رؤية" وليس "نظرية") دفعتني إلى توضيح المعنى الذي أعطيته لـ "التحديد التنازعي" (Underdetermianation) وأن أقترح، على هذا الأساس، تفسيرًا لأنماط التمفصل بين نماذجٍ من الواقع المُعيَّن لكل تشكيلٍ تاريخيّ. من الواضح أن المعنى الذي أعطيه للنموذج الثقافي يختلف عن المعنى الذي نسبته إليه نظرياتٌ ثقافيةٌ رائجةٌ حاليًا. إنني أُعرِّف الشيوعية، مفهومةً على أنها مرحلةٌ أعلى من الحضارة وليست رأسماليةٍ "متحضرةٍ" أو رأسماليةٍ بدون رأسماليين منتفِعين، باعتبارها بدقةٍ سيادةَ النموذج الثقافي. تُظهر مقصدي عناوينُ الفصول في كتاب *Specters of Capitalism* (*أطياف الرأسمالية*). هنا يمكنني فحسب أن أحيل القارئ إلى هذه التحليلات (*أطياف الرأسمالية* - الفصول ٣، ٤، ٥).

> إنني أُعرِّف الشيوعية، مفهومةً على أنها مرحلةٌ أعلى من الحضارة وليست رأسماليةٍ "متحضرةٍ" أو رأسماليةٍ بدون رأسماليين منتفِعين، باعتبارها بدقةٍ سيادةَ النموذج الثقافي.

لقد كان التوسع المُعولَم للرأسمالية استقطابيًا دائمًا في كل مرحلةٍ من مراحل تطوره، بمعنى أنه شيَّد باستمرارٍ تعارضًا بين المراكز الإمبريالية المتسيّدة والأطرافِ المَسُودَة. التراكم البدائي مستمر. إن التفكير الاجتماعي المُهيمِن، الذي يعمل بمثابة مدافعٍ عن الرأسمالية، مدفوعٌ لتجاهل هذا الواقع بحيث يمكنه أن يَعِدَ شعوب الأطراف بـ"الالتحاق" المستحيل في إطار الرأسمالية وبوسائلها. اليومَ يعزز التفكير الرائج حاليًا الانبعاثة القوية لهذا الوهم المميت. من المفترض أن الإمبريالية، التي تدّعي تيارات ما بعد الحداثة المعاصرة أنها في طور الاختفاء، ليست سوى جملةٍ اعتراضية عبر التاريخ ستباشر بالعولمة الحقيقية والمتجانسة للنموذج الرأسمالي المتقدم، بزعم أن البلدان البازغة دليلٌ على هذه الإمكانية. لقد رفضتُ هذا الرأي الساذج والدفاعي وقمت بتحليل الأشكال البازغة باعتبارها مرحلةً جديدة من الاستقطاب (*Implosion of Contemporary Capitalism* "*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة*" - الفصل ٢). لا أعتقد أن ماركس كان مقتنعًا أبدًا بأن قوة التوسع الرأسمالي ستنتهي بالضرورة إلى مجانسة الكوكب، حتى لو بدا أنه اقترح هذا الرأي في بضع ملاحظاتٍ متفرقة. في مناسباتٍ أخرى، لم يتردد في إدانة الطريق المسدود الذي أنشأه الاستعمار، مبينًا إمكانية ظهور الاشتراكية من أطراف النظام المعولَم الحديث، كما يتضح من بعض كتاباته عن روسيا.

إن واقع النظام الرأسمالي المعولَم والاستقطابي يجبرنا على أن نأخذ في الاعتبار النضالات الاجتماعية المحلية، من حيث تتصل بالصراعات الدولية الكبرى، سواء بين المراكز الإمبريالية والأطراف التي تكافح من أجل تحررها وتلك القائمة بين القوى المركزية المُتسيّدة. كان ماركس يعتزم التعامل مع هذا السؤال في مجلديّ رأس المال، اللذين لم يُكتبا في النهاية. في رأيي، فإن صياغة نظريةٍ اقتصاديةٍ نقديةٍ للنظام العالمي، هي في الأصلِ مقدَّرٌ لها الفشل. لهذا جادلت بأن ماركس، في مرحلةٍ ما، كان سيتخلى عن هذا المشروع. (*Three Essays on Marx's Value Theory* " *ثلاث مقالات عن نظرية القيمة عند ماركس*" - الجزء ١). من المؤكد أن العلم الاقتصادي للرأسمالية المعولَمة الذي يقدَّم لنا ليس سوى تبريرٍ للممارسات الإمبريالية. بيد أنّ نظريةً اقتصاديةً محضةً أخرى للنظام العالمي هي بذات الاستحالة. هنا يجب أن نضع أنفسنا في مجالٍ أوسعَ للمادية التاريخية. بهذه الطريقة، يمكننا التعبير عن الطبقات والأمم والدول ككلٍ منطقيٍّ يتيح لنا أن نفهم كيف يعمل النظام العالمي الحديث من خلال جميع أبعاده الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية. إن ما قلته للتو بشأن الصراع الرئيسي في عصرنا (الذي بدأ في القرن العشرين) يسري بالمثل على الصراعات بين الدول المركزية المتسيّدة في القرنين التاسع عشر والعشرين. منذ تشكلت الرأسمالية التاريخية على أساس ظهور الدول المركزية (المملكة المتحدة، فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة، وقليلٌ غيرها)، لا يمكن اختزال الصراع بين هذه الدول إلى منافستها في سوقٍ ضمن عملية العولمة بالوسائل الاقتصادية. اقترح ماركس أيضًا التعامل بشكلٍ منهجيٍّ مع الصراع الطبقيّ في مجلدٍ من رأس المال

لم يتسنى له كتابته. كتاباته المتفرقة حول هذا الموضوع الرئيسيّ لا تملأ الفراغ.

في المجلد الثاني من رأس المال، يوضح ماركس أن عملية التراكم في مجتمعٍ ما مُختزَلةً إلى نمط الإنتاج الرأسمالي تتطلب زيادةً في الأجور توازي زيادةَ إنتاجية العمل الاجتماعي. خلافَ ذلك، فإن التوازن العام يغدو مستحيلًا. ستكون هناك زيادةٌ في إنتاج السلع الرأسمالية والسلع الاستهلاكية مقارنةً بالطلب غير الكافي. تحمل الرأسمالية داخلها هذا التناقض المميت: الوضع المُهيمِن للبرجوازية والمنافسة بين الشركات الرأسمالية تجعل من المستحيل أن تزداد الأجور بالمعدل اللازم. لا يمكن للرأسمالية إذن التغلب على هذه الأزمة الدائمة. ومع ذلك، فقد نجحت في استبدال هذا الطلب غير الكافي عبر توسُّعها الأفقي في أشكال الإنتاج التي سبقتها (الإنتاج الزراعي الصغير والحرفي، الملكية العقارية الصغيرة، التجارة الصغيرة، إلخ). وقد أسفر الاحتلال الكولونيالي الخارجي عن آثارٍ مماثلة. يلاحظ سويزي بدقة أن أزمات الرأسمالية ليست هي المشكلة، بل لحظات الازدهار التي يتم فيها التغلب على هذه الأزمات. لفهم السبب وراء ذلك، علينا أن نتجاوز التحليل الاقتصادي لنمط الإنتاج الرأسمالي إلى المجال الأوسع للمادية التاريخية. تتجلى لحظات الازدهار في الحروب والوحدة الألمانية والإيطالية وموجات الابتكارات الرئيسية (آلات الغزل والنسيج، السكك الحديدية، الكهرباء، السيارات والطائرات، تكنولوجيا المعلومات). لهذا السبب لا أرى في الرأسمالية نهاية التاريخ، وإنما جملةً اعتراضيةً قصيرة (*Ending the Crisis of Capitalism or Ending Capitalism?* '*إنهاء أزمة الرأسمالية أم إنهاء الرأسمالية؟* "). من جهتي، حاولت أن أضع الصراعات الاجتماعية في هذا السياق الأوسع، ولا سيما الصراع الطبقي الرئيسي بين البروليتاريا والبُرجوازية، وقدّمت بعض الملاحظات المنهجية حول الموضوع والمتعلقةَ بتأثير هذا الصراع على تراكم رأس المال. (*قانون القيمة المعولمة* - الفصول ١، ٤ / *ثلاث مقالات عن نظرية القيمة عند ماركس* - الجزء ١).

٤

يبدأ تفسير الرأسمالية المعاصرة الذي أقترحه بملاحظات باران وسويزي حول ضرورة قيام قسمٍ ثالثٍ بامتصاص الفائض المُنتَج بواسطة تناقض الرأسمالية المميت. لقد سبق أن قلت أنها كانت، بالنسبة لي، مساهمةً حاسمةً أغنت تحليلات ماركس للرأسمالية التاريخية (*ثلاث مقالات عن نظرية القيمة عند ماركس* - الجزء ٢). سألخص حُجَّتي المركزية حول تحولات الرأسمالية الإمبريالية المعاصرة في النقطتين التاليتين.

١- لقد انتقلنا من الرأسمالية الاحتكارية كما تطورت بين عامي ١٨٩٠ و١٩٧٠ إلى مرحلةٍ جديدة تتميز بمستوى أعلى نوعيًا من مركزة السيطرة على رأس المال. وبالتالي، تم تخفيض جميع أشكال الإنتاج إلى درجة التعاقد من الباطن، مما سمح للاحتكارات (التي أسميها "مُعمَّمةً" لهذا السبب) باقتطاع جزءٍ متزايدٍ دائمًا من فائض القيمة في شكل ريعٍ احتكاري (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ١) هذه القفزة النوعية، التي تم تنفيذها في فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ نسبيًا بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠، يتم التعبير عنها من خلال القوة التي حازتها الأوليجاركية (بضعة آلافٍ من الأفراد) التي تحتكر كل القوة الاقتصادية والسياسية. ننتقل بالتالي من الأشكال التاريخية للرأسمالية "الملموسة" (الوصف الذي أقترحه لتعريف النظام التشغيلي لطبقة البُرجوازية المكوَنة من عددٍ من أصحاب الملكية الخاصة لشرائح من الرأس المال الوطني) إلى ما أسميه "الرأسمالية المجرَّدة". يرجى الرجوع إلى تحليلي -بواسطة هذه المفاهيم- لتحول قانون القيمة، وبناءً على هذا التطور، فصلِ نظام الأسعار عن نظام القيم (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ١ / *ثلاث مقالات عن نظرية القيمة عند ماركس* - الجزء ١).

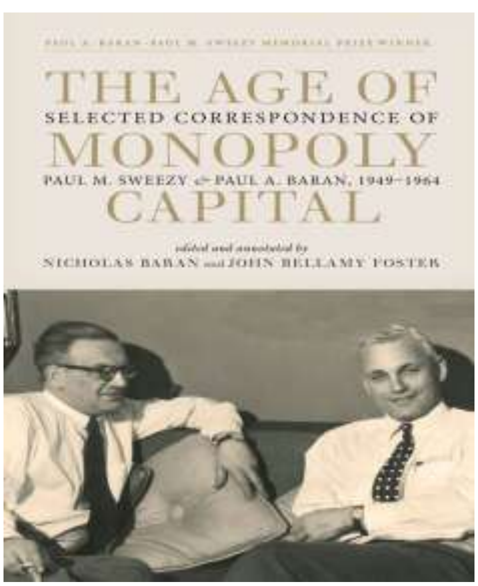
٢- أدى هذا التحول إلى اضمحلال الصراع القديم بين القوى الإمبريالية واستبداله بإمبريالية جماعية جديدة للثالوث (الولايات المتحدة، أوروبا، اليابان). لم تعد لدى القوى الإمبريالية طريقةٌ أخرى لمواصلة سيطرتها على الأطراف الهائلة للنظام (٨٥% من سكان العالم)، التي أصبحت مناطق اضطراباتٍ دائمة. لا يعني ظهور هذه الإمبريالية الجماعية بأي حالٍ من الأحوال ظهور "برجوازية عالمية" مصاحبةٍ لها (حتى على مستوى الثالوث أو أوروبا)

و"دولة عالمية" تدير رأسماليةٍ معولمةٍ، كما تقترح عدة نظرياتٍ انتقدتها. (*Pambazuka*)تظل الدولة والبُرجوازية قوميةً: أمريكيةً، بريطانيةً، يابانيةً، ألمانيةً، وما إلى ذلك. لا يوجد اتفاقٌ ضروريٌ بين متطلبات عمل القاعدة الاقتصادية للنظام والمتطلبات المتعلقة بالنماذج السياسية والأيديولوجية التي تلبي وظائفها الإدارية. لا يوجد تحديدٌ تضافريٌ (Overdetermianation) للنماذج. على العكس من ذلك، فإن تحديدًا تنازعيًا هو الذي يميز تطور الحياة الاجتماعية. مفهوم التحديد التضافري ينطوي على وجهة نظرٍ خطيةٍ وحتميةٍ للتاريخ. إن التحديد التنازعي -الذي يبدو أقرب إلى وجهة نظر ماركس- يسمح لنا بفهم العقبات المحتملة في تطور المجتمعات ومختلفِ الاستجابات البديلة لتلك التحديات. وخيرَ مثالٍ على هذا التناقض هو الأزمة الحالية للنظام الأوروبي، التي لا تستطيع التغلب على واقع الحكومات الوطنية، والانهيار الداخلي المتوقَّع للاتحاد الأوروبي (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ٣).

إن التغيرات التي وصفتها هنا تستتبع نتائجًا بالغة الأهمية فيما يتعلق بأشكال الإدارة السياسية لكافة النظم الوطنية. في المراكز (الثالوث)، احتكار السلطة الذي تمارسه الأوليجاركيات الجديدة (التي ليست روسيةً فقط، كما تريد لنا الدعاية الغربية أن نعتقد!) قد أفرغ الديمقراطية الانتخابية التمثيلية بالفعل من أي معنىً إيجابيٍ نسبيًا اكتسبته في الماضي. إن اصطفاف الديموقراطية الاجتماعية، التي أصبحت ليبراليةً اجتماعية، مع مواقف اليمين الكلاسيكي -وبعبارةٍ أخرى، تلوُثُ كل شيءٍ بالڤيروس الليبرالي- قوض بالفعل مصداقية هذه الديموقراطية ونزع عنها شرعيتها. يفتح هذا التطور المأساوي الطريق إلى بعث الفاشية في المجتمعات التي تتفاقم فوضاها التامة. القوة المطلقة للأوليجاركية المعاصرة هي حقيقةٌ جديدةٌ في تاريخ الرأسمالية. في الواقع، ألغت ديكتاتوريتُها وجودَ الأحزاب السياسية اليمينية واليسارية على حدٍّ سواء، وقضت على النقابات العمالية بالعجز، واستعبدت وسائل الإعلام التي اختُزلت إلى كهنوتٍ مكرَّسٌ لخدمة الأوليجاركية حصرًا. لسوء الحظ، فهذه الديكتاتورية فعالةٌ للغاية، على الأقل حتى الآن. في ظل هذه الظروف، فإن الخطاب المتحذلق حول نشأة "المجتمع المدني" مثيرٌ للضحك. يتم التسامح مع المجتمع المدني المعنِيّ -بل ويتم تشجيعه- ببساطةٍ لأنه يترك الناس بلا حولٍ ولا قوة (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ١).

في الأطراف، بشكلٍ عام، فالحكومة ليست سوى أداةٍ للخَدَم المحليين لهيمنة الاحتكارات الإمبريالية للثالوث. هذه الأوليجاركية التابعة الجديدة، التي حلَّت محلَّ الكتل التاريخية الوطنية السابقة، لا تملك شرعيةً كافيةً يمكن أن تؤسِس عليها سلطتها ولا يمكنها إلا اللجوء إلى ممارسة العنف الدائمة. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة العامة لا تصف بدقةٍ الوضع في العديد من البلدان البازغة (خاصةً الصين) وفي البلدان التي لا تزال تقاوم الهيمنة الإمبريالية (كوبا، ڤيتنام، وبعض دول أمريكا اللاتينية). من الواضح أن الإمبريالية الجماعية لا تتسامح مع أي رفضٍ للخضوع الكامل لمتطلبات شكل العولمة الذي بَنَته. يواجَهُ طموحُ أيَّةِ حكومةٍ تريد أن تثبت نفسها على المسرح العالمي كرأسماليةٍ قومية (لا أتحدث عن مشاريعٍ اشتراكية تريد أن تتخطى الرأسمالية) وأن تصبح مشاركًا فاعلًا في تشكيل النظام العالمي، بالإصرار القاطع للثالوث على حرمانها هذا الحق، كما نرى في العداوة الشرسة تجاه روسيا. عولمةٌ أخرى، قائمةٌ على تعدد الأقطاب، هي ببساطة أمرٌ غير مقبولٍ بالنسبة للثالوث. وبالتالي، فإن قوى الثالوث متورِّطةٌ في حربٍ دائمةٍ ضد بقية العالم لأنه لا يمكن لأيَّةِ دولةٍ أن تتسامح إلى ما لا نهاية مع ما تطالَب به من خضوعٍ غير مشروط.

في الأطراف، بشكلٍ عام، فالحكومة ليست سوى أداةٍ للخَدَم المحليين لهيمنة الاحتكارات الإمبريالية للثالوث.



بول سويزي(١٩١٠-٢٠٠٤) و بول باران (١٩٠٩-١٩٦٤)-
المصدر: مونثلي ريفيو

إن النظام الحالي للعولمة الليبرالية غير قابلٍ للبقاء. تتجلى المركزية القصوى للسلطة لخدمة المصالح الحصرية للأوليجاركية في التعاظم اللانهائي للتوزيع غير العادل للدخل والثروة المقترن بالقاعدة الاقتصادية الراكدة في المراكز التاريخية، كما تتجلى أيضًا في فرط استغلال العمل في الأطراف المُهيمَن عليها وسلب مواردها الطبيعية. لا يمكن التغلب على هذا التناقض إلا بالاندفاع المستمر بلا نهاية إلى مزيدٍ من الأموَلة (Financialization) للحياة الاقتصادية. قد يعتقد المرء أن مثل هذا النظام منافٍ للعقل. بهذا الصدد، يدّعي المصلحون أمثال جوزيف ستيجليتز وأمارتيا سِن وآخرين، أنه سيكون من الضروري فحسب التحكم بالأموَلة للخروج من هذا المأزق. إنهم ببساطة ينسون أن الأوليجاركية تستمد امتيازاتها من هذا النظام، الذي قد يكون عبثيًا بالنسبة للجميع، لكنّه مُجدٍ بالنسبة لها.

الأزمة الحالية إذن، تنطوي على تمركز السيطرة على رأس المال. إنها بالتالي أزمةٌ نظامية. في الأزمات العادية، التي تتميز بمنحنى على شكل حرف U، نفس المنطق الاقتصادي الذي ينتج الركود، يعمل بدورهِ، لتعزيز الانتعاش بعد فترةٍ قصيرةٍ نسبيًا لبضع سنواتٍ يتم خلالَها إجراء التعديلات من خلال تخفيض قيمة رأس المال و تصفية الشركات غير التنافسية. على النقيض من ذلك، في أزمةٍ نظامية، تتميز بمنحنى على شكل حرف L، فإن الانتعاش الممكن سيتطلب تحولاتٍ هيكلية جوهرية. في السياق الراهن، ستكون تحديدًا لامركزية السيطرة الاقتصادية على المستوى الوطني في المراكز وعلى مستوى النظام العالمي. في مواجهة معارضة الأوليجاركية الحازمة، فإن الإصلاح الفعّال يستلزم بالضرورة صياغةَ مشروعٍ جذري، يفتح الطريق أمام تحدٍ للرأسمالية ذاتها (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ٤). بما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن مثل هذه الجذرية مطروحةٌ على جدول الأعمال، فإن الأزمة النظامية، التي بدأت في السبعينيات، أبعد ما تكون عن بلوغ نهايتها.

شهد العالم الحديث أولى أزماته النظامية التي بدأت قبل قرنٍ بالضبط من الثانية. استجاب رأس المال لها بواسطة قفزةٍ إلى الأمام تمثَّلت في تركيز رأس المال (الاحتكارات الأولى في نهاية القرن التاسع عشر)، وتعميق العولمة الاستعمارية، والأموَلة التي دبَّرتها مدن تلك الحقبة، تمامًا كما فعلت للتعامل مع الأزمة النظامية الحالية، مع نتائج غير مقنعةٍ بالمرة (*إنهاء أزمة الرأسمالية أم إنهاء الرأسمالية؟* - المقدمة). كان العصر الزاهي (لرأس المال!) المليء بالأوهام (١٩٠٠-١٩١٤) قصيرًا جدًا. كان رد التاريخ على هذه الأزمة النظامية السبّاقة: الحرب العالمية الأولى، والثورة الروسية، وأزمة ١٩٢٩، والنازية، والحرب العالمية الثانية، والثورة الصينية، واستعادة شعوب آسيا وإفريقيا لاستقلالها. لا أقل!. لذا تنوعت هذه الاستجابات على مدى طيفٍ واسع: الثورة الاشتراكية، والفاشية، والإصلاحية المستمرة، والاستقلال الوطني. فلماذا إذن، لا تستجلب هذه الأزمة الثانية التي نعيشها الآن استجاباتٍ بذات التنوع: موجةً ثانية من الثورات الاشتراكية، وبل أيضًا موجةً ثانية من الفاشيات؟.

كما هو الحال دائمًا، يستحيل إعطاء أي إجابةٍ قاطعةٍ على سؤال المستقبل، فهو متسِعٌ دومًا. ولكن يمكننا -بل يجب- أن نحاول تحديد ردود الفعل الممكنة من خلال التحليل المستمر للنضالات الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية الحالية وترابطها مع النزاعات الدولية، خاصةً مع الصراع الرئيسي بين الإمبريالية الجماعية للثالوث وبقية العالم. قد نبدأ بفحص التحولات الهائلة في التكوين الاجتماعي لبلدانٍ في الشمال والجنوب والشرق. وسأعرض هنا ما أعتقد أنه أهم النقاط.

في المراكز المتقدمة، يقال إن الطبقة العاملة -التي اختُزِلت إلى ذلك الجزء المتركِّز في المصانع الكبيرة من حقبة الفوردية- في تدهورٍ عدديٍ وسياسي. ومع ذلك، في الوقت نفسه، أصبح الوضع البروليتاري -الذي يُعرَّف بأنه وضع العامل الذي لا يملك ما يبيعه سوى قوة عمله- أكثر انتشارًا. أكثر من ٨٠% من القوى العاملة بالفعل هم من العاملين بأجر، وأعتقد أنه من المفيد التمييز بين أولئك الذين ينتجون فائض القيمة (الغالبية العظمى) وأولئك الذين لا ينتجونها (الأقلية) أو حتى من هم (أقلية صغرى) من الموظفين المباشرين عند المتحكمين برأس المال (*ثلاث مقالات عن نظرية*

القيمة عند ماركس – الجزء ٣). العمال المستقلون هم أيضًا بائعو قوة عمل. استقلالهم ظاهريٌ فقط، لأنهم في الواقع، يبيعون خدماتهم كمتعاقدين من الباطن لرأس المال.

ولكن يتزامن مع ارتفاع معدلات البَلتَرَة (Proletarianization)، زيادة الانقسامات الحادة داخلها والتي تستند إلى العديد من المعايير (النساء، الشباب، المهاجرون، العَمالة غيرالمستقرة والعاطلون عن العمل، إلخ...) (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ١). والنتيجة المباشرة لهذا التقسيم، الذي يتم تنفيذه بشكلٍ منهجي من خلال السياسات الحالية، هو أن السكان المتحولين إلى الوضع البروليتاري يواجهون صعوباتٍ جمةً في نضالاتهم من أجل الانتقال من الدفاع عن مكاسبهم إلى صياغة إصلاحاتٍ جذرية، الأمر الذي يزيده تعقيدًا ابتعادهم عن المشاركة في الأحزاب السياسية الفاقدة لمصداقيتها. يؤدي هذا الموقف إلى انتشار الأوهام، وأخطرها تشجيع بعث مختلف أشكال الفاشية. لكنه يستولد أيضًا الفكرة الساذجة التي قدمتها تيارات ما بعد الحداثة عن أن المجتمع المدني قادرٌ على "تغيير الحياة"، في حين أنه لا يستطيع حتى "تغيير الحكومة"!. إن مركز ثقل النضالات، ينتقل عندها نحو مجالاتٍ عمليةٍ يتم تصويرها على أنها حاسمةٌ بالنسبة لجوانبٍ معينةٍ من الحياة الاجتماعية، لا سيّما التحديات الجندرية والإيكولوجية. دعوني أوضِّح أنني لا أعتقد أنها مشاكلٌ هيّنة، بل هي أبعدُ ما تكون عن هذا. لقد ضمّن ماركس بالفعل في نقده اختلال التوازن الناتج عن منطق الرأسمالية في علاقة الهدم والبناء بين الطبيعة والبشر، وهو اختلالٌ باتَ خطِرًا للغاية مذ حينها. إن ما لا يفهمه كثيرٌ من الإيكولوجيين المعاصرين، لسوء الحظ، هو أن إعادة التوازن أمرٌ مستحيلٌ دون انفصالٍ جذريٍّ عن منطق رأس المال. علاوةً على هذا، فإنه من المؤسف تاريخيًا أن الحركات الاشتراكية نادرًا ما اعترفت بالأهمية المركزية للعلاقات بين الرجل والمرأة. "لنقم بالثورة، أولًا، ثم لنتعامل مع تلك المشكلة". لا، الصراعات على هاتين الجبهتين يستحيل فصلها. لا يمكن تحقيق تقدمٍ اجتماعيّ دون تقدمٍ متزامنٍ في العلاقات بين الجنسين، في كل مرحلةٍ من مراحل الحركة الإنسانية نحو التحرر. لن يكون من الممكن تحقيق تقدمٍ ملموسٍ بدون ربط كل النضالات في حركةٍ واعيةٍ وشاملة تكون قادرةً على مهاجمة وتدمير حصن الرأسمالية الاحتكارية المُعمَّمَة.

> الفكرة الساذجة التي قدمتها تيارات ما بعد الحداثة عن أن المجتمع المدني قادرٌ على "تغيير الحياة"، في حين أنه لا يستطيع حتى "تغيير الحكومة"!. وما لا يفهمه كثيرٌ من الإيكولوجيين المعاصرين، لسوء الحظ، هو أن إعادة التوازن أمرٌ مستحيلٌ دون انفصالٍ جذريٍّ عن منطق رأس المال.

لسوء الحظ، فمن الواضح أن النضالات الحالية في الغرب تجري دون أدنى اهتمامٍ بما يحدث في أماكنَ أخرى من العالم. لقد اختفى التضامن المعادي للإمبريالية. يتم دعم الحروب التي تشنها الأوليجاركية الإمبريالية، وهنالك القليل من الوعي بالكذبة التي تُخفي حقيقة أهداف هذه الحروب. ليس هذا آخرَ انتصارات ديكتاتورية الأوليجاركيات وتوظيفِها للكهنوت الإعلامي خاصتها.

كانت التغييرات التي أثّرت على مجتمعات الجنوب، والشرق الاشتراكي السابق في العقود الأخيرة كبيرةً بنفس القدر. على الرغم من أن هذه التحولات الاجتماعية تختلف ظاهريًا من بلدٍ إلى آخر، إلا أنها تتبع نفس المنطق الذي تفرضه العولمة الإمبريالية النيوليبرالية. وبالتالي، كانت هذه التغييرات أعظمَ أثرًا في نتائجها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منها في المراكز المهيمِنة.

كان الاتجاه الرئيسي السائد ينزع إلى تسريع العمليات التي تدمر مجتمعات الفلاحين التي كانت تضم في السابق غالبيةً كبرى من السكان في آسيا وإفريقيا. يطرح سؤال الفلاحين فورًا، وبوضوحٍ عنيف، مسألة عدم المساواة بين الرجل والمرأة المتصلةَ به، لأن تدمير المجتمعات الريفية ينتهي دائمًا بمزيدٍ من الفقر والاضطهاد للمرأة. لقد قمت بتحليل الأشكال التي اتخذها هذا التدمير المتسارع والوحشي للغاية في موضعٍ آخر (*إنهاء أزمة الرأسمالية أم إنهاء الرأسمالية* - الفصل ٥). لا يتم تعويض هذا التدمير بالمعدل اللازم من زيادة العَمالة الحضرية لتخفيف المأساة الإنسانية الناتجة – بل يستحيل تعويضه. إن الرأسمالية الإمبريالية التاريخية ليس لديها ما تقدمه سوى تشييد كوكبٍ من العشوائيات. من الواضح أن ضغوط

الهجرة اليائسة هي أيضًا نتيجةٌ لعملية الإفقار الواسعة النطاق هذه. في المناطق الحضرية، يتم التعبير عن الإفقار عبر النمو السريع للغاية لأنشطة البقاء على قيد الحياة، والتي تُوصَف بأنها العَمالة غير الرسمية. تتيح السياسات المنهجية للإقصاء المُوجَّه التي يتم تنفيذها، الاستغلالَ المفرط للعمل التعاقدي من الباطن لصالح رأس المال الاحتكاري.

بالتزامن مع هذه التطورات المأساوية التي تؤثر على الغالبية العظمى من السكان في هذه البلدان -٦٠% إلى ٨٠% من السكان- تشجع عملية العولمة الليبرالية النمو السريع للطبقات الوسطى الجديدة المكوَّنة من الأقلية المُدمَجَة في نظام الإنتاج. تضم هذه الأقلية -التي غالبًا ما كانت ضئيلة العدد بما لا يقاس قبل ٥٠ عامًا- أحيانًا اليومَ حوالي خُمس سكان هذه البلدان. هذه الأقلية تدرك بوضوحٍ أنها المستفيد الوحيد من النظام. إن المديح العشوائي الذي تغدقه أدوات الدعاية المؤيدة للإمبريالية (البنك الدولي وغيره) على صعود هذه الطبقة الوسطى الجديدة يتجاهل بكل بساطةٍ أن ثمنه ليس سوى إفقار الأغلبية.

هذا الشكل المحدد من البلترة أو الإفقار يخلق وضعًا سياسيًا تصعب إدارته. أصبحت ديكتاتورية الأوليجاركيات المحلية الخاضعة لأوامر الثالوث الإمبريالي، بالتالي، الطريقةَ الوحيدة لإدارة هذه الأزمة الدائمة. الرموز السياسية الذين اضطلعوا بالمسؤولية نيابةً عن الحكومات الوطنية الشعبية في المرحلة السابقة -مرحلة باندونج وعدم الانحياز، بين ١٩٦٠و١٩٨٠- غالبًا ما انضموا تباعًا إلى العولمة الجديدة على أمل البقاء في السلطة وتقبُّل أسياد الثالوث لهم، كما يمكن أن نلاحظ مع الرِدّة التي قادها خلفاء ناصر في مصر، وحافظ الأسد في سوريا، وبومدين في الجزائر، أو التغيرات في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا، وفي حزب العمال البرازيلي، وغيرهم. لكنّ سلطة الأوليجاركيات المحلية، حتى وإن كانت مدعومةً من قِبل الطبقات الوسطى المستفيدة من النظام، تظل غير شرعيةٍ في نظر الغالبية المُفقَرة، كما يتضح من تفجُّر الاضطرابات في العالم العربي وأماكن أخرى. ومع ذلك، فإن هذه الحركات لم تنجح بعد في تجاوز مرحلة الانفجار الغاضب. إن الطابع الراكد للبنية الطبقية الناتج عن نموذج التنمية الرثة المَعنِيّ، يفسر بالتأكيد الضعف البِنيوي للثورات. وبالتالي، فإن الطريق تغدو مفتوحةً بسهولة أمام الانتصار قصير الأجل للبدائل الرجعية الزائفة، المستندة إلى الدين أو العِرق

> إن المديح العشوائي الذي تغدقه أدوات الدعاية المؤيدة للإمبريالية (البنك الدولي وغيره) على صعود هذه الطبقة الوسطى الجديدة يتجاهل بكل بساطةٍ أن ثمنه ليس سوى إفقار الأغلبية.

٥

لقد حاولت أن أوضح في التحليل أعلاه تفسيري للأزمة النظامية المزدوجة الحالية: أزمةٌ في سلطة الأوليجاركية المرتبطة بنموذجٍ اقتصاديٍ غير قابلٍ للبقاء وأزمة غالبية البشر الذين هم ضحايا، لكنهم غير قادرين على صياغة بديلٍ متماسك. هذا الطابع المزدوج للأزمة يلغي في المستقبل المنظور إمكانية التقدم الثوري الذي من شأنه أن يفتح الطريق لتجاوز الرأسمالية الآيلة للزوال. لقد قدمت بعض الاقتراحات المتعلقة بالخطوات الأولى الممكنة لحركةٍ ترغب في تجاوز الرأسمالية (*الانهيار الداخليّ للرأسمالية المعاصرة* - الفصل ٤).

منذ وقتٍ بعيد، أدهشني التشابه بين وضعنا وحالة سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية. لقد أعطيت عنوانًا موحيًا لخاتمة كتابي *Class and Nation* *الطبقة والأمة* (١٩٧٩): "ثورة أم انحطاط؟". يعود هذا الكتاب إلى بدايات الأزمة النظامية الطويلة القائمة. أنشأت الإمبراطورية الرومانية نظامًا لمركزة استنزاف واستخدام فائض الخراج الذي نزحته من استغلالها للشعوب التي شكّلت الإمبراطورية، وهو فائضٌ تجاوزَ متطلبات إعادة إنتاج القوى المنتجة وتطويرها في تلك الفترة الزمنية: ذهبَ كل شيءٍ إلى روما وأقاليمها الإيطالية. هذا الاستنزاف مفرط المركزية للفائض قضى على إمكانيات التقدم في أقاليم الإمبراطورية ("أطراف" روما). للتغلب على هذا التقدم المُعرقَل إذن، كان من الضروري جعل الإمبراطورية تنفجر، أي أن تعمل الأقاليم على "فك الارتباط". وفي الوقت نفسه، كانت إعادة التوزيع الجزئية للفائض على العوام الرومان، المُفسَدين

برشوة "الخبز والسيرك"، قد قضت على أي إمكانيةٍ ثوريةٍ في مركز النظام. وهكذا انهارت الإمبراطورية الرومانية إلى الفوضى. إن النظام الإقطاعي، الذي يتسم تحديدًا باللامركزية في استنزاف واستخدام الفائض، لم يُمهَّد الطريقُ أمامه إلا "بفعل الظروف"، مع حلول الغزوات البربرية والفوضى السياسية لقرون. هذا هو السبب في أننا لا نشير إلى "الثورة الإقطاعية"، ولكن إلى الانحطاط الروماني. مضى ما يقرب من عشرة قرونٍ قبل أن يؤدي النظام اللامركزي الجديد إلى نهضة الحضارة في ثيابٍ إقطاعية، على قاعدة التقدم الذي انتشر في جميع أنحاء أوروبا.

يعاني النظام المعاصر أيضًا من التمركز المفرط للفائض، الذي يتم استنزافه الآن ضمن صور الرأسمالية المعولمة. هذا التمركز المفرط يضعف تطلعات الشعوب في المراكز الإمبريالية لإحداث تحولٍ جذري في النظام ويحكم في الوقت ذاته على شعوب الأطراف بالتنمية الرثة دون أفق. تتطلب مواجهة هذا التحدي أن تعمل الأطراف على فك الارتباط وأن تستبدل المشروعات الوطنية ذات السيادة بالتكيّف المستمر مع المأزق التي تفرضه مقتضيات العولمة الإمبريالية.

> تتطلب مواجهة هذا التحدي أن تعمل الأطراف على فك الارتباط وأن تستبدل المشروعات الوطنية ذات السيادة بالتكيّف المستمر مع المأزق التي تفرضه مقتضيات العولمة الإمبريالية.

ألهمني هذا التشابه صياغةَ شكلين محتمَلين للانتقال من نظامٍ ما إلى مرحلةٍ أعلى من الحضارة. يتم إنتاج الشكل الأعلى، الذي يمكن دعوته ثوريًا، عندما يواجه المجتمع المَعنِيُّ نمطَ إنتاجٍ استنفد إمكانياته التاريخية، ليشرع عن وعيٍ وعمدًا في بناء بديلٍ ممكنٍ وفعال. بدرجاتٍ متفاوتة، يمكن النظر إلى الثورات البُرجوازية والموجة الأولى من الثورات الاشتراكية على هذا النحو، وبالتالي تستحق وصفها كثورات. لكن التاريخ يُلزِمُنا بأخذ الشكل الآخر للانتقال في الاعتبار، والذي يحدث دون تدخلٍ فعالٍ وواعٍ من الفاعلين الاجتماعيين. يمثل الانتقال إلى الإقطاع الأوروبي مثالًا جيدًا. هذا الوجود التاريخي الحقيقي لهذين الشكلين للتطور الاجتماعي المحتمل هو بالضبط الذي دفعني إلى رفض التفسير الحاسم لبعض المدارس الماركسية التاريخية والتأكيد على التحديد التنازعي للنماذج.

بالتأكيد، لم تكن اللامركزية الإقطاعية "نهاية التاريخ" مثلما هي تلك التي أقترحها اليوم من خلال هدم الشكل الحالي للعولمة.الهدم الإقطاعي نفسه تمّ بصورةٍ تدريجيةٍ من خلال إعادة بناء فائضٍ مركزي. حدثت إعادة البناء هذه على مرحلتين. في الأولى، فرضت الملكيات المطلقة للنظام القديم مركزيةً قوميةً جديدةً في علاقةٍ وثيقةٍ مع نظام الميركانتلية الأوروبي، هي بحدِّ ذاتها انتقالٌ إلى رأسماليةٍ تاريخيةٍ مكتمِلة. في المرحلة الثانية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، أكمل بناء الرأسمالية/العولمة الإمبريالية هذه المركزية، التي تعمل الآن على نطاقٍ عالمي. بطريقةٍ مماثلة، يمكننا أن نتخيل الانتقال الطويل إلى الشيوعية، منظورًا إليها على أنها مرحلةٌ أعلى من الحضارة، يحدث في خطوتين: أولًا، من خلال تفكيك العولمة الإمبريالية التي يعقبها إعادة بناء عولمةٍ بديلةٍ حقًا تستند إلى مبدأ تضامن الأفراد والشعوب الأساسي بدلًا من مبدأ التنافس بين رؤوس الأموال والأمم. لن أجازف أكثرَ في محاولةٍ عبثيةٍ لوصف مستقبلٍ أفضلٍ وتحديد ما سيكون موحَّدًا على مستوى العالم وما لن يكون كذلك لحسن الحظ. المستقبل مفتوحٌ وسيكون كما يصنعه البشر. أكتفي بمعالجة القضايا المتعلقة بماهية الاستجابات الفورية والضرورية والممكنة للتحدي، بمعنىً آخر، استراتيجياتٌ للخطوات المبدأية للتقدم الممكن في الاتجاه المطلوب.

لسوء الحظ، لا يوجد سببٌ لاستبعاد بديل "انتحار الحضارة". فالتاريخ محتشِدٌ بجثث المجتمعات التي عجزت عن التغلب على تناقضاتها، التي استحالت مُهلِكةً. لقد قدّم ماركس هذه الملاحظة بالفعل، واختار بحزمٍ وجهة نظرٍ لا حتميةٍ للتاريخ. التوفيق الخاطئ بين النماذج التاريخية يمكن أن يكون مدمِرًا. يتضح هذا من خلال التجدد المستمر لصور الاغتراب المُتراكبِ واحدُها فوق الآخر. الاغتراب السلعي المميّز للرأسمالية وصورالاغتراب السابقة تاريخيًا يعزز بعضها بعضًا. إن وضوح الوعي، أي القدرة على فهم طبيعة تناقضات النظام ومشكلاته، وعلى هذا الأساس صياغةَ

استراتيجيات عملٍ بديلةٍ وفعالةٍ ملتحمةٍ فيما بينها، يبدو غائبًا عن التاريخ المعاصر. والفاعل الاجتماعي الواضح قد اختفى. هذا ما جرى في الإمبراطورية الرومانية. دفع الناس في ذلك الوقت الثمن بغرقهم في البربرية لقرونٍ عدة. لكن بينما نجحت أوروبا وقتئذٍ في النجاة من الكارثة، هل سيحدث الشيء ذاته في عصرنا الذي تمتلك فيه الحكومات القائمة وسائلَ دمارٍ لا تضاهى بسابقتها؟

ربما تكون بين الحالتين المتطرفتين الموضحتين هنا (أرفع وعيٍ ثوريٍ ممكن أو غيابَه الكامل) احتمالاتٌ "وسيطة" أخرى: وعيٌ جزئيٌ ينشأ من صراعاتٍ محدَّدةٍ، على سبيل المثال، من صراعات الفلاحين أو النساء من أجل الدفاع عن المشاعات الإنسانية العامة [المشاعات العامة: هي الموارد الطبيعية والثقافية المشتركة والمتاحة لكافة أعضاء مجتمعٍ ما بحصصٍ متساوية-المترجم] أو النضال من أجل احترام السيادة الشعبية. إن السير نحو التقارب بين هذه الأنواع المحدَّدة من الوعي سيجعل التقدم صوب صياغة طرقٍ جديدةٍ لتجاوز الرأسمالية ممكنًا. لكن لاحظ: أن المسألة ليست مجرد تجنبٍ لتفاؤلٍ مصطنَع. لن يتحقق تنامي الوعي بواسطة التكيف المتتالي مع متطلبات التراكم الرأسمالي، ولكن من خلال الوعي بضرورة القَطع مع تلك المتطلبات. لا ينبغي للشرائح الأكثر استنارةً من الحركة أن تعزل نفسها عن طريق التلويح بازدرائها للآخرين. بدلًا من ذلك، ينبغي عليهم إشراك أنفسهم في كافة النضالات من أجل مساعدة الآخرين على تعزيز إدراكهم

.

حاشية

سرعان ما يلحظ القارئ اليقظ أن هذا المقال مَدينٌ بالكثير للخط الفكري الذي قدم له بول باران وبول سويزي وهاري ماجدوف إسهاماتٍ حاسمة. لا يذكرهم النص سوى بشكلٍ عابرٍ، ولكن دائمًا فيما يتعلق بالنقاط ذات الأهمية القصوى. كما أشرت في موضعٍ آخر، فقد قرأت بتمَعُّنٍ وأعدت قراءة *رأس المال* أربعَ مراتٍ خلال حياتي. في الستينيات قرأت لأول مرةٍ أعمال باران وسويزي ثم قابلتهما شخصيًا. نتيجةً لذلك، أُلقِيَ ضوءٌ جديدٌ على قراءتي الثانية *لرأس المال*. منذ ذلك الحين، انتهجت جميع أعمالي الرئيسية الخط الفكري الذي أبدعه باران وسويزي في *Monopoly capital (رأس المال الاحتكاري)*. مثلهم، فهمت أنه كان من الضروري الانتقال من قراءة *رأس المال* وماركس بشكلٍ عام إلى دراسة الرأسمالية؛ كان علينا أن ندع التأويل ونتجرأ على تجاوز النصوص المؤسِسة. أود هنا أن أشير إلى بعض النقاط البارزة المتعلقة بجماعتنا الفكرية.

○ إن دراسة نموذجٍ تجريديٍ للرأسمالية "النقية" يدل على أن هذا النظام غير قابلٍ للبقاء. يتطلب التوسع في إعادة إنتاج رأس المال زيادةً للأجور الفعلية بما يتناسب مع الزيادة في الإنتاجية. إن إخضاع العمال لإملاءات رأس المال لا يسمح بذلك. هذا هو السبب في أن سويزي كان على صوابٍ في قوله -كما أذكر- بأنه ليست الأزمات هي المشكلة التي تتطلب شرحًا، بل وجود فترات ازدهار. إن اكتشاف حقيقة الفائض ووضع تصورٍ له أمران لازمان لكل من يبتغي تفسير الواقع في تطوره التاريخي، أي تفسير الرأسمالية. ومع ذلك، لا تزال هذه الطريقة لتفسير تاريخ تطور الرأسمالية تحتل موقع الأقلية ضمن الماركسيات التاريخية المتنوعة.

○ إن تفسير الرأسمالية التاريخية لا يكن أن يكون سوى تفسير الرأسمالية المعولَمة، وليس تفسير مختلف شرائحها (القومية) مفحوصةً بمعزلٍ عن بعضها. في الجدال الدائر حول أصل الرأسمالية، تبنى سويزي هذا الموقف بوضوحٍ، وهو بالمثل رأي الأقلية بين مدارس الماركسية التاريخية.

○ تحاول الاقتراحات التي قدمتها لوضع تصورٍ لقانون القيمة المعولمة تحديدَ شروط امتصاص الفائض على الصعيد العالمي. من وجهة النظر تلك، فإن الريع الإمبريالي هو جانبٌ حاسمٌ من اشتغال الريع الاحتكاري في قانون القيمة المعولمة. أشير إلى هذا باختصارٍ في التحليل السابق وبمزيدٍ من التفصيل في بعضٍ من تحليلاتي الأخرى المنشورة في مونثلي ريڤيو *Monthly Review*.

ينبغي عندئذٍ قراءة هذا المقال على أنه المساهمة التي كنت أرغب بتقديمها إلى الاحتفال الذي نظمه محرري مونثلي ريڤيو لهذا

العدد من المجلة. إني أتشرف وأسعد بأن أُحسَبَ بين من استكملوا عمل باران وسويزي.



العودة للفهرس

خطاب إلى مؤتمر القارات الثلاث

تشي جيفارا – خطاب الى مؤتمر القارات الثلاث

الناشر: السكرتارية التنفيذية لمنظمة التضامن مع شعوب افريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية.

تاريخ النشر: ١٦ أبريل ١٩٦٧، هافانا

«نحن في زمن الأفران، ما يجب أن يُرى هو الضوء فقط – خوسيه مارتي»

واحد وعشرون عامًا مرت منذ إنطفاء نيران الحرب العالمية الأخيرة ، العديد من النشرات وبكل لغة ممكنة احتفلت بهذا الحدث الذي جسدته هزيمة اليابان. هناك مناخ عام من التفاؤل البادي في مناطق عدة من المعسكرات المختلفة التي ينقسم إليها العالم.

واحد وعشرون عامًا بلا حرب عالمية ، حيث المواجهات العُظمى ، والصدامات العنيفة والتغيرات المفاجئة ، يبدو ذلك شيئًا مهمًا. ومع ذلك إذا قمنا بتحليل النتائج العملية لهذا السلام (الفقر والهوان والنهب المتعاظم لقطاعات متزايدة من الإنسانية التي قمنا جميعًا بالإعلان عن رغبتنا في القتال من أجلها) ، فمن البديهي أن نتساءل إنْ كانت حالة السلم تلك حقيقية.

ليس غرض تلك الورقة تفصيل الصراعات المحلية المختلفة الجارية منذ استسلام اليابان ، ولا ذكر العدد المتزايد من الحروب الأهلية التي حدثت خلال هذه السنوات من السلام الظاهري. بل سيكون كافيًا ذكر حروب كوريا وفيتنام لمواجهة حالة التفاؤل المفرط السائدة هذه الأيام.

في الحالة الأولى ، وبعد سنوات من الحرب الوحشية ، وُلدت الدولة الشمالية وسط حالة بشعة من الدمار لم تعرف سجلات الحرب الحديثة مثيلًا لها ، ممزقة بالقنابل ، بلا مصانع ولا مستشفيات أو مدارس ، و بلا أي ملجأ لإيواء عشرة ملايين مواطن.

وتحت علم الأمم المتحدة المشبوه ، شاركت عشرات من الدول في هذه الحرب بقيادة الولايات المتحدة ، بحضورٍ ضخم لجنودها و استخدامها الكوريين الجنوبيين كوقود للحرب. على الجانب الآخر ، مدَّ الجيش السوفييتي جيش الشعب الكوري والمتطوعين من جمهورية الصين الشعبية بالسلاح والتخطيط. وقد اختبرت الولايات المتحدة كل أنواع الأسلحة المدمرة بإستثناء السلاح النووي ، مع استخدام السلاح البيولوجي والكيميائي و إن كان على نطاق محدود.

في فيتنام ، خاضت القوات الوطنية حربًا لا تنقطع ضد القوى الإمبريالية ؛ اليابان – التي عانت ما يشبه انهيارًا عموديًا بعد قنابل هيروشيما وناجازاكي ، و فرنسا التي تعافت من وضعية الدولة المهزومة في مستعمرات الهند الصينية وتجاهلت وعودها التي قطعتها في الأوقات الصعبة ، والولايات المتحدة في المرحلة الأخيرة من الصراع.

كانت هناك مواجهات محدودة في كل القارات بما فيها قارتنا الأمريكية ، و لوقت طويل لم يكن هناك سوى نضالات تحرير بدائية و انقلابات عسكرية حتى أطلقت الثورة الكوبية الشرارة ، لافتة الانتباه لأهمية تلك المنطقة. و قد أغاظت كوبا الامبرياليين فَأُجبِرَت على الدفاع عن شواطئها أولا في بلايا جيرون Playa Giron ثم مرة أخرى في أزمة الصواريخ.

تلك الأزمة الأخيرة كانت لتطلق عنان حرب لا يمكن حساب أبعادها ، ان اقتتلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حول المسألة الكوبية.

لكن ، وبشكل واضح ، تعتبر أراضي الهند الصينية وما حولها مركز كل التناقضات حاليا. و قد تمزقت لاوس وفيتنام بحرب لم تعد حربا أهلية بتدخل الامبريالية الأمريكية في الصراع بكل قوتها وبالتالي تحويل المنطقة كلها لقنبلة موقوتة في أي لحظة.

و قد اتخذت المواجهات في فيتنام مظاهر حادة ، وليس في نيتنا تسجيل أحداث الحرب. لكننا سنذكر بشكل مبسط بعض الأرقام.

في ١٩٥٤ ، بعد الهزيمة الساحقة في "دين بين فو" ، وُقِّعَ في جنيف اتفاقٌ يقسم البلاد الى منطقتين منفصلتين ، على أن تُعقد الانتخابات في مدى زمني لا يتجاوز ١٨ شهرًا لتقرير من سيحكم فيتنام وكيف سيتم توحيد البلاد مرة أخرى. لم توقع الولايات المتحدة هذه الوثيقة وبدأت المناورة لاستبدال الامبراطور "باو داي" الذي كان مجرد دُمية فرنسية ، برجل أكثر تمثيلا لمصالحها ، والذي أصبح "نجو دين ديم" الذي كانت نهايته مأساوية كما يعرف الجميع كبرتقالة اعتصرتها الامبريالية.

في أثناء الشهور التي تلت الاتفاق ، ساد التفاؤل في معسكر القوات الشعبية ، وقد تمت تصفية آخر جيوب المقاومة ضد الفرنسيين في جنوب البلاد في انتظار تنفيذ اتفاق جنيف. لكن الوطنيين أدركوا سريعا أنه لا انتخابات ما لم يشعر الأمريكيون أنهم قادرون على فرض ارادتهم فيها ، و هو ما كان مستحيلا حتى مع اللجوء لكل طرقهم في الاحتيال. و مرة أخرى اشتعل القتال في الجنوب و وصل تدريجيا الى أقصى حدته. في الوقت الحالي ، زاد تعداد الجيش الأمريكي الى نصف مليون من الغزاة بينما القوات العميلة تتراجع في العدد والأهم من ذلك أنها فقدت كل قدراتها القتالية.

لقد بدأت الولايات المتحدة منذ عامين تقريبا قصفا منتظما ضد جمهورية فيتنام الديمقراطية ، في محاولة أخرى لدحر أمة مقاتلة ، ولتفرض من موقع قوة عملية التفاوض. في البداية كان القصف متقطعا الى حد ما و متخفيا خلف مزاعم الرد على استفزازات الشمال. لكن بعد ذلك ازدادت شدة القصف عبر هجمات عنيفة ينفذها سلاح جو الولايات المتحدة يوميا بهدف تدمير كل مظاهر المدنية في الجزء الشمالي من البلد. ان هذا يعد حلقة من حلقات التصعيد الشائن سيئ السمعة.

ان الأهداف الأساسية لليانكيز تم تحقيقها بشكل كبير ، بغض النظر عن رباطة جأش الدفاعات الجوية الفيتنامية التي أسقطت العديد من الطائرات (أكثر من ١٧٠٠ طائرة) و بغض النظر عن المساعدات العسكرية من المعسكر الاشتراكي.

و الحقيقة المؤسفة هي أن فيتنام -كأمة تمثل تطلعات و آمال شعوب العالم المنسية - وحيدة بشكل مأساوي. ان تلك الأمة تتحمل الهجمات الحاقدة للتكنولوجيا الأمريكية بدون أي امكانية عملية للرد في الجنوب ، و ببعض الدفاع في الشمال لكن دائما بشكل معزول. اننا حين نحلل تلك العزلة التي يعانيها الشعب الفيتنامي فاننا حتما نشعر بالغم في تلك اللحظة اللامنطقية التي تعيشها البشرية.

ان تضامن القوى التقدمية العالمية مع الشعب الفيتنامي يشبه تملق عامة الرومان بسخرية مُرة للمصارعين في ساحة روما. ان القضية ليست تمنى انتصار الضحية التي تتعرض للعدوان ، بل هي أن تشاركها نفس مصيرها ، أن تصاحبها الى الموت أو الانتصار.

ان الولايات المتحدة دولة عدوانية ، وجرائمها الضخمة تغطي العالم كله. نحن نعلم هذا فعلا أيها السادة ! لكن هذا الجرم ينسحب أيضا على أولئك الذين – في ساعة الحسم – ترددوا في التعامل مع فيتنام على أنها جزء من المعسكر الاشتراكي لا تنتهك حرمته ، في أن يفرضوا قرارا على الامبريالية حتى مع الأخذ في الاعتبار مخاطر قيام حرب عالمية. كما أن هذا الجرم ينسحب على أولئك الذين يحافظون علي استمرار حرب الاساءات و نصب الفخاخ التي ظهرت منذ مدة بين ممثلي أكبر دولتين في المعسكر الاشتراكي.

ان علينا أن نسأل أنفسنا سؤالا يبحث عن اجابة صادقة: هل فيتنام معزولة أم لا؟ ألا تحفظ فيتنام توازنا خطرا بين المعسكرين المتصارعين ؟

يا له من شعب عظيم ، قوي و شجاع ! أي درس يقدمه هذا النضال للعالم ! لن يمر وقت طويل قبل ان نعلم ان كان الرئيس جونسون قد فكر في اجراء بعض الاصلاحات التي يطلبها الشعب الأمريكي ، لتسكين التناقضات الطبقية الشائكة التي تنمو كل يوم بشكل انفجاري. و الحقيقة أن الاصلاحات التي تم اعلانها تحت العنوان البراق " المجتمع العظيم " قد سقطت جميعها في البالوعة الفيتنامية.

ان أكبر قوة امبريالية تشعر في قرارة نفسها أن دولة فقيرة غير متطورة قد جعلتها تنزف ، واقتصادها المبهر يعاني ضغوطات الحرب. و القتل لم يعد عملا سهلا بالنسبة للاحتكارات. ان الجنود الفيتناميين الاستثنائيين لا يمتلكون الا أسلحة دفاعية وبأعداد لم تكن يوما كافية ، لا يمتلكون الا حبهم لوطنهم و لمجتمعهم بالاضافة الى شجاعة لا يضاهيها شئ. لقد تورطت الامبريالية في فيتنام ، و هي غير قادرة على ايجاد طريق للخروج ، يستعيد لها كرامتها في ظل هذا الوضع الخطير الذي تجد نفسها فيه. أضف الى ذلك ان النقاط الأربع التي طرحها الشمال ، ونقاط الجنوب الخمس قد دفعت الامبريالية الى الركن لتجعل المواجهة أكثر حسما.

ان كل الأحداث تشير الى أن هذا السلام – الذي يحمل هذا الاسم فقط لأنه لم تنشب مواجهة عالمية – يواجه خطر التقويض بواسطة الولايات المتحدة التي تتخذ خطوات غير مقبولة ولا يمكن تصحيحها.

ما هو الدور الذي يجب أن نلعبه ، نحن الشعوب المنهوبة ؟ ان على شعوب القارات الثلاث التركيز على فيتنام و تعلم الدرس. و طالما كانت الامبريالية تبتز الجنس البشري بالحرب و تهدده بها ، فمن الحكمة ألا نخاف الحرب. ان التكتيك العام للشعوب يجب أن يكون شن هجوم متواصل و حاسم على كل الجبهات أينما تحدث المواجهة.

ما هي مهمتنا أينما يتم خرق هذا السلام الهش ؟ انها تحرير أنفسنا أيا كان الثمن الذي سندفعه.

ان المشهد العالمي معقد بشكل كبير. ان بعض دول أوروبا القديمة ، المتقدمة بما يكفي لادراك تناقضات الرأسمالية ، لكنها ضعيفة للحد الذي لا تستطيع معه السير في طريق الامبريالية أو أن تشق طريقها ، تلك الدول لم يبدأ فيها النضال من أجل التحرر بعد. ان التناقضات في تلك البلاد سوف تتفاقم بشكل انفجاري في السنوات القادمة ، لكن مشكلاتهم و حلولها مختلفة عما عليه الوضع في الدول المستقلة المتخلفة اقتصاديا.

ان الميدان الأساسي للنهب الامبريالي يضم القارات الثلاث المتخلفة: أميركا و افريقيا و آسيا. و صحيح أن كل دولة لها خصائصها المحددة لكن كل قارة تمثل وحدة بذاتها. ففي قارتنا الأمريكية التي تتكون من مجموعة من البلدان الأقل أو الأكثر تجانسا ، نجد أن غالبية ترابها خاضع لسيادة رأس المال الاحتكاري الأمريكي. و الحكومات العميلة – في أحسن الحالات – أو الحكام المحليون غير قادرين على معارضة الأوامر القادمة من سيدهم اليانكي. لقد أوشكت الولايات المتحدة على الوصول الى ذروة الهيمنة الاقتصادية والسياسية ، و هي تستطيع بالكاد أن تتقدم أكثر من ذلك و بالتالي فان أي تغيير في الموقف قد يتسبب لها في انتكاسة. ان سياسة الولايات المتحدة هي الحفاظ على ما تم تحقيقه ، و ان الخط العملي ، في الوقت الراهن ، هو استعمال القوة الغاشمة في ضرب حركات التحرر أيا كان توجهها.

ان شعار " لن نسمح بخلق كوبا جديدة " يخفي امكانية قيام الولايات المتحدة بحرب عدوانية دون الخوف من رد فعل ، كالحرب التي شنتها ضد جمهورية

الدومينيكان، أو مجزرة بنما. كما يخفي هذا الشعار تهديدا صريحا بتدخل قوات اليانكي في أي مكان في قارة أمريكا اللاتينية يتعرض فيه النظام الحاكم لخطر التغيير و بالتالي تتعرض فيه المصالح الأمريكية للخطر. ان تلك السياسة تتمتع بحصانة كبيرة، فـ "منظمة الدول الأمريكية " تقدم غطاءا مناسبا رغم عدم شعبيتها، بالاضافة الى أن عدم فاعلية الأمم المتحدة أمر سخيف و مؤسف، أما جيوش كل الدول الامريكية فهي على استعداد للتدخل لتدمير شعوبها. ان أممية الجريمة و الخيانة قد تم تأسيسها. على الجانب الآخر، فقدت البرجوازيات المحلية كل قدرة – ان وجدت أصلا – على مقاومة الامبريالية، و قد أصبحوا آخر كارت يمكن التعويل عليه. وبالتالي لم يعد هناك بدائل أخرى: اما ثورة اشتراكية أو مسرحية هزلية.

أما آسيا فان لها خصائص مختلفة، ان حروب التحرير التي تم خوضها ضد عديد من قوى الاستعمار الاوروبي قد أفضت الى تأسيس حكومات تقدمية الى هذا الحد أو ذاك، تلك الحكومات التي أدت عوامل تطورها الداخلية اما الى تعميق الأهداف الأساسية للتحرر الوطني في بعض الحالات، أو الى اتخاذ مواقف داعمة للامبريالية في حالات أخرى.

و من وجهة نظر اقتصادية، فان الولايات المتحدة كان لديها القليل لتخسره و الكثير لتكسبه في آسيا. ان تلك التغييرات خدمت مصالحها، حيث النضال للاطاحة بالقوى الاستعمارية الأخري، و النفاذ الى مساحات اقتصادية جديدة، أحيانا بشكل مباشر، و عبر اليابان من حين لآخر. لكن هناك ظروف سياسية خاصة – و خصوصا في الهند الصينية – تخلق في آسيا أوضاعا ذات أهمية قصوى و تلعب دورا حاسما في مجمل الاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة.

يطوق الامبرياليون الصين عبر كوريا الجنوبية و اليابان وتايوان و فيتنام الجنوبية وتايلاند على الأقل.

ان هذا الوضع المزدوج، حيث المصلحة الاستراتيجية في تطويق جمهورية الصين الشعبية و اختراق تلك الأسواق التي لم تسيطر عليها الولايات المتحدة بعد، تجعل آسيا واحدة من أكثر المناطق عرضة للانفجار في عالم اليوم، على الرغم من حالة الاستقرار الظاهري التي تبدو خارج منطقة الصراع الفيتنامي.

أما الشرق الأوسط، فرغم أنه يتبع آسيا جغرافيا، الا أن له تناقضاته الخاصة التي تختمر بشكل سريع. وانه لمن المستحيل التنبؤ الى أي مدى سوف تصل الحرب بين اسرائيل - مدعومة من الامبرياليين – وبين الدول التقدمية في المنطقة. ان هذا بركان آخر يهدد بالثوران في العالم اليوم.

و تمثل افريقيا أرضا عذراء أمام غزو الاستعمار الجديد، و قد حدثت تغييرات نسبية أجبرت قوى الاستعمار على التخلي عن امتيازاتها المطلقة. لكن حين تستمر هذه التغييرات بشكل متواصل، فان الاستعمار يتخذ شكله الجديد محدثا نفس التأثير بقدر ما يتطلب الموقف الاقتصادي.

ليس لدى الولايات المتحدة مستعمرات في هذه المنطقة، لكنها تناضل الآن من أجل اختراق اقطاعيات شركائها، و يجوز القول أنه بالتمعن في استراتيجية الامبريالية الأمريكية، فان أفريقيا تشكل احتياطي لها على المدي الطويل. و استثماراتها المهمة تتركز الآن فقط في الاتحاد الجنوب افريقي، كما أن وجودها بدأ يصبح محسوسا في الكونغو و نيجيريا و دول أخرى حيث تقع منافسة امبريالية شرسة، بشكل سلمي حتى الآن.

و حتى الآن لا تمتلك الولايات المتحدة مصالح كبيرة لتدافع عنها في افريقيا، هذا بجانب ما تدعيه من حق التدخل في أي مكان تجده الاحتكارات الأمريكية مصدرا لأرباح هائلة أو يحتوي احتياطيات كبيرة من المواد الخام. ان كل هذا التاريخ يبرر اهتمامنا بمسألة امكانية تحرير تلك الشعوب في مدة زمنية طالت أو قصرت.

فاذا ما توقفنا لنحلل الوضع في افريقيا، فسوف نلاحظ أنه في المستعمرات البرتغالية – غينيا و موزمبيق و انجولا – يتم شن نضال شديد نسبيا بانتصارات ملموسة في الحالة الأولى، وبنجاحات متغيرة في الحالتين الأخيرتين. ولازلنا نشهد في الكونغو، النزاع بين خلفاء "لومومبا" وتابعي "تشومبي"، النزاع الذي يبدو أنه يرجح كفة الأخيرين في الوقت الحاضر، هؤلاء الذين فرضوا السلام في منطقة

كبيرة من البلاد لأجل مصالحهم الخاصة ، لكن الحرب لازالت محتملة.

و في روديسيا لدينا مشكلة مختلفة ، فقد استخدمت الامبريالية البريطانية كل ما توفر لديها من وسائل لتفرض السلطة غير الشرعية للأقلية البيضاء. ان الصراع – من وجهة نظر البريطانيين – غير رسمي على الاطلاق ، و تلك القوة الغربية و بكل مهارتها الدبلوماسية المعتادة - و يمكن تسميتها نفاقا بالمعنى الحرفي للكلمة – أعربت بشكل زائف عن عدم رضائها عن الاجراءات التي اتخذتها حكومة "ايان سميث". ان هذا السلوك الماكر دعمته بعض دول الكومونويلث التي تتبع بريطانيا ، لكن هاجمته مجموعة كبيرة من دول افريقيا السمراء ، سواء كانوا عبيد اقتصاديين أذلاء للامبريالية البريطانية او لا.

و اذا ما نجحت الجهود الوطنية المتمردة ، وتلقت تلك الحركة الدعم من الدول الافريقية المجاورة ، فان الوضع في روديسيا يمكن أن ينفجر في أي لحظة. و لكن حتى الآن لا زالت تلك المشكلات تتم مناقشتها في منظمات غير ضارة كالأمم المتحدة و الكومونويلث ومنظمة الوحدة الافريقية.

لا يمكننا أن نتوقع ثورة قارية من خلال التطور الاجتماعي و السياسي لافريقيا. على أن النضال التحرري ضد الاستعمار البرتغالي لابد أن ينتهي بالنصر ، لكن البرتغال لا تمثل أي وزن في العالم الامبريالي. ان المواجهات ذات الأهمية الثورية هي تلك التي تقضي على كل الوجود الامبريالي ، و هذا لا يعني بأي حال أنه يجب التوقف عن القتال لتحرير المستعمرات البرتغالية الثلاثة و تعميق ثوراتها.

حينما تبدأ الجماهير السمراء نضالها التحرري الأصيل في جنوب افريقيا أو روديسيا ، سيبزغ فجر عهد جديد في افريقيا ، حينما تقوم الجماهير التي تم افقارها لاسترداد حقها في حياة كريمة من أيدي الأوليجاركيات الحاكمة.

حتى الآن ، تتبع الانقلابات العسكرية بعضها البعض ، مجموعة من الضباط يخلفون مجموعة أخرى أو يغيرون الحاكم الذي لم يعد يخدم مصالحهم الخاصة ، أو مصالح القوى التي تحركهم بشكل مستتر ، لكن لا توجد أي انتفاضات شعبية كبيرة ، و ان كانت بعض مظاهرها قد بدت في الكونغو تحت تأثير ذكرى لومومبا ، لكنها بدأت في الخفوت في الشهور الأخيرة.

في آسيا ، كما رأينا ، الموقف يوشك على الانفجار. ان النقاط الساخنة ليست فقط فيتنام ولاوس حيث يستعر القتال ، بل أيضا تمثل كمبوديا نقطة ساخنة قد تتعرض لعدوان أمريكي في أية لحظة. كذلك تايلاند و ماليا و بالطبع اندونيسيا التي لا نستطيع الجزم بأن الوضع فيها قد حُسِم رغم ابادة الحزب الشيوعي بعد استيلاء الرجعيين على السلطة. بالاضافة الى ما سبق هناك طبعا الشرق الأوسط.

و في أمريكا اللاتينية يستمر النضال المسلح في جواتيمالا و كولومبيا و فنزويلا و بوليفيا ، و تنضج الانتفاضة في البرازيل. كذلك هناك بعض ومضات المقاومة التي تظهر ثم تختفي. لكن كل دول القارة تقريبا جاهزة لنوع من النضال الذي –لكي يحقق النصر – لا بد ألا يرضى بأقل من تأسيس حكومات ذات توجه اشتراكي.

ان هذه القارة – عمليا – تتحدث لغة واحدة ، باستثناء البرازيل التي يكفي التحدث مع شعبها بالاسبانية ليفهمك نظرا للتشابه الكبير بين اللغتين. هناك كذلك التشابه الكبير بين الطبقات في دول القارة ، فقد حددت لنفسها و فيما بينها هوية لاتينية أكثر كمالا منها في القارات الأخرى. ان اللغة و العادات و الدين والسيد الأجنبي المشترك كلها أمور توحدهم. كما أن درجة و شكل النهب متشابهين سواء للناهبين أو للناس المنهوبين في غالبية دول قارتنا الأمريكية ، و ان الثورة تنضج فيها بسرعة.

و ان علينا أن نسأل أنفسنا سؤالا: كيف نجعل تلك الثورة تزدهر ؟ و كيف سيكون شكلها ؟ لقد أشرنا سابقا الى أن النضال في أمريكا سوف يتخذ بعدا قاريا نظرا لأوجه الشبه الكبيرة. فليكن هذا مشهد العديد من المعارك العظيمة التي تُخاض لتحرير الانسانية.

و في اطار هذا النضال على مستوى القارة ، تلك المعارك التي تعد حلقة من حلقات النضال ، جاد العديد من الشهداء بأرواحهم ليخلدوا في تاريخ قارتنا الأمريكية بعدما قدموا دماءهم الضرورية في المرحلة الأخيرة من النضال من أجل التحرير الكامل للانسان ، و من ضمن تلك الأسماء القائد تورسيوس ليما ، و الأب كاميلو توريس ، القائد

فابريسيو أوغيدا، القائدان لوباتون ولويس ديلا بوينتي اوشيدا، و جميعهم رموز عملاقة للحركات الثورية في جواتيمالا و كولومبيا و فنزويلا والبيرو. لكن الحركة الشعبية النشيطة تفرز باستمرار قادة جدد، ترتفع راية سيزار مونتس و يون سوزا في جواتيمالا، فابيو فاسكيز و ماريولاندا في كولومبيا، دوجلاس برافو في الجزء الشرقي و أميركو مارتن في الباتلير، وكلاهما يقودان النضال في هاتين الجبهتين من فنزويلا على الترتيب.

و من المتوقع أن تقوم انتفاضات جديدة في تلك البلاد و بلاد أخرى من أمريكا اللاتينية، كما حدث في بوليفيا، كما أنه من المتوقع أن تستمر تلك الانتفاضات في النمو حتى في ظل الصعوبات التي تلازم مهام الثوريين في هذا العصر. العديد من هذه الانتفاضات سوف يهلك، كنتيجة لأخطائها الداخلية، و بعضها سوف يسقط في المعركة الفاصلة التي تقترب، مقاتلون جدد و قادة جدد سوف يظهرون في نار النضال الثوري، و الشعب سوف يخلق محاربيه و قادته في اطار الحرب نفسها، و العملاء القمعيين لليانكي سوف يزدادون عددا. واليوم، هناك مساعدات عسكرية للدول التي يتصاعد فيها النضال، و قد استطاع الجيش البيروفي شن هجوم ناجح ضد الثوريين في هذا البلد، و قد تلقي هذا الجيش التدريب و التوجيه من قبل اليانكي. و كلما نمت الامكانيات السياسية و العسكرية في بؤرة الصراع، كلما أصبح الثوريون أكثر منعة، مما سوف يضطر اليانكي لارسال التعزيزات. ففي البيرو نفسها، تقوم شخصيات جديدة غير معروفة بتنظيم رجال العصابات الثورية، وخطوة بخطوة سوف يتم استبدال الأسلحة القديمة البالية الكافية لقمع جماعات مسلحة صغيرة، بأسلحة حديثة والمساعدات العسكرية الأمريكية سوف يحل محلها مقاتلون أمريكيون سوف تتزايد أعدادهم في لحظة معينة لتأمين استقرار الحكومة التي يتفكك جيشها تحت الضربات العنيفة لرجال العصابات الثورية. انه الطريق الفيتنامي الذي يجب أن يتبعه الشعب في قارتنا الأمريكية، مع وجود ميزة امكانية اقامة لجان تنسيقية بين المجموعات المسلحة لهزيمة قوات اليانكي القمعية الامبريالية و لتعجيل الانتصار الثوري.

ان أميركا، القارة المنسية في النضالات التحررية الأخيرة، ها قد جعلت صوتها مسموعا عبر القارات الثلاث، عبر صوت الثورة الكوبية طليعة الشعوب اللاتينية، و هي تضطلع اليوم بمهمة عظيمة، مهمة خلق فيتنام ثانية وثالثة، أو خلق فيتنام الثانية و فيتنام الثالثة في هذا العالم.

ان علينا أن ندرك أن الامبريالية نظام عالمي، انها أعلى مراحل الرأسمالية، و أنه لا تمكن هزيمتها الا في مواجهة عالمية. ان الغاية الاستراتيجية لهذا النضال يجب أن تكون تدمير الامبريالية. و ان دورنا و مسؤليتنا، نحن المنهوبون و غير المتطورين، هو أن نقضي على أسس الامبريالية في بلادنا المضطهَدة التي ينهبون منها فائض القيمة و المواد الخام والفنيين و العمالة الرخيصة، و التي يصدرون اليها رؤوس أموال جديدة – أدوات الهيمنة – و الأسلحة و كل ما يكبلنا في حالة تبعية كاملة.

ان الأساس الحقيقي لتلك الغاية الاستراتيجية – تدمير الامبريالية – يجب أن يكون التحرير الحقيقي لكل الشعوب، التحرير الذي سنحققه عبر الكفاح المسلح في أغلب الحالات، و الذي لن يكون الا ثورة اشتراكية في قارتنا الأمريكية.

و بينما نضع تصورا لتدمير الامبريالية، فانه يجب علينا تحديد رأسها، و الذي لا يمكن أن يكون الا الولايات المتحدة الأمريكية.

ان أمامنا مهمة ذات غرض تكتيكي واضح و هو جذب العدو خارج بيئته الطبيعية، أن نجبره على القتال في مناطق تصطدم عاداته ونمط حياته بالواقع القائم فيها. و علينا عدم التقليل من قدرة عدونا، فجندي الولايات المتحدة لديه امكانيات تكنولوجية و مدعوم بالسلاح و الموارد التي تجعله قويا. و لكنه يفتقد للدافع الايديولوجي الضروري الذي يمتلكه اليوم و على أعلى درجة عدوه الفيتنامي الأكثر مرارة. اننا سوف نستطيع تدمير هذا الجيش فقط بتحطيم معنويات جنوده عبر تكبيده الخسائر و جعله يعاني بشكل مستمر.

لكن هذا التصور المختصر للنصر يتضمن تضحيات شعبية هائلة، تضحيات مطلوبة بدءا من اليوم وفي وضح النهار، و هي تضحيات ربما تكون أقل ألما مما يمكن أن نتعرض له اذا اخترنا أن نتجنب المعارك في انتظار من ينتزع لنا حريتنا من العدو.

من المحتمل بالطبع أن تنجز آخر دولة تحررها بلا كفاح مسلح وبلا معاناة من حرب طويلة و عنيفة وقاسية ضد الامبرياليين ، هذا هو ما يمكن تجنبه. لكن ربما يصبح من المستحيل تجنب هذا النضال و تأثيراته في ظروف مواجهة عالمية ، ان المعاناة قد تكون مشابهة أو ربما أكبر. نحن لا نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل ، كما أننا لا نستطيع أن نستسلم للتوجه الانهزامي ، أن نكون طليعة أمة تتوق الى الحرية و في نفس الوقت نمقت النضال الذي تتطلبه تلك الحرية و ننتظر أن تأتينا كالفتات على موائد النصر.

بالطبع ، من العادل تماما أن نتجنب كل التضحيات غير الضرورية ، لذلك لابد من بحث امكانية أن تتحرر أمريكا اللاتينية التابعة عبر الوسائل السلمية. و بالنسبة لنا ، فان الاجابة على هذه المسألة واضحة جدا ، ان اللحظة الراهنة قد تكون أو لا تكون ملائمة لبدء النضال ، لكننا لا يمكن أن نستسلم لوهم ، وليس لدينا الحق لأن نستسلم لوهم انه من الممكن أن نحصل على حريتنا دون قتال. ان هذه المعارك لا يمكنها أن تكون مجرد قتال شوارع بالحجارة ضد قنابل الغاز ، و لا أن تكون اضرابات عامة سلمية ، كما أنها لن تكون معركة أناس غاضبين يحطمون في يومين أو ثلاثة جهاز القمع الأوليجاركي. ان هذا النضال سيكون طويلا و قاسيا ، و ستكون الجبهة هي مخيمات العصابات في المدن ، في بيوت المقاتلين – حيث قوى القمع تبحث فيها عن ضحايا سهلة بين عوائلهم – وسط الريف المذبوح ، في القرى و المدن التي دمرها قصف العدو.

انهم يدفعون بنا الى هذا النضال ، لا بديل ، وعلينا أن نستعد و أن نتخذ القرار بخوضه.

البدايات لن تكون سهلة ، بل صعبة جدا. كل قوى القمع الأوليجاركية ، و كل قسوتها وقدرتها و ديماجوجيتها سوف توضع في خدمة قضيتها. و مهمتنا في الساعات الأولى يجب أن تكون البقاء على قيد الحياة ، بعد ذلك يجب علينا اتباع النموذج الخالد لرجال العصابات ، أن ننفذ الدعاية المسلحة (بالمعنى الفيتنامي ، انها الرصاصات الدعائية ، رصاصات المعارك سواء انتصرنا أو انهزمنا – يجب أن نقاتل – ضد العدو). ان الدرس الواجب تعلمه هو كيف يمد رجال العصابات جذورهم عميقا وسط الجماهير المحرومة ، صقل الروح الوطنية والاستعداد للمهمات الأصعب ، لمقاومة موجات قمع أكثر عنفا. و استخدام الكراهية كعنصر في القتال ، كراهية لا تنتهي ضد العدو ، تدفعنا فوق و الى ما وراء حدود الامكانيات البشرية الموروثة ، لتحول المناضل الى آلة قتل باردة فعالة وعنيفة و اختيارية. ان جنودنا يجب أن يعلموا أن مقاتلا بلا كراهية لا يمكنه أن يقهر عدوا قاسيا.

ان علينا أن نشعل الحرب أينما يشعلها العدو ، في منزله و في مراكز التسلية ، انها حربٌ شاملة. و من الضروري أن نحرم العدو من كل لحظة سلام ، داخل ثكناته و خارجها. يجب أن نهاجمه أينما يتواجد ، أن نجعله يشعر أنه عِجل مُحاصر أينما ذهب ، وقتها سيبدأ بنيانه المعنوي في الانهيار ، بل سيصبح أكثر عنفا لكننا سوف نلحظ عوامل التحلل و قد بدأت تظهر.

دعونا ننشئ أممية بروليتارية حقيقية ، بجيوش بروليتارية أممية ، والراية المقدسة التي نقاتل في ظلها هي انعتاق البشرية. ان الموت تحت راية فيتنام أو فنزويلا أو جواتيمالا أو لاوس أو غينيا أو كولومبيا أو بوليفيا أو البرازيل – لنسمي بعضا من مناطق اشتعال النضال المسلح اليوم – اقول ان الموت تحت راية أي من هذه البلدان لهو مجد يرغب فيه اللاتيني و الافريقي و الآسيوي و حتى الأوروبي.

ان كل قطرة دم يسكبها مناضل في بلد لم يولد تحت رايتها ، انما هي قيمة يرثها الذي يحيا ، و خبرة تضاف فيما بعد الى مسيرة تحرير بلده ، ان كل أمة تتحرر هي مرحلة في معركة تحرير موطنه الأصلي.

لقد حان وقت حل جميع الخلافات ووضع كل شئ في خدمة النضال.

اننا جميعا نعلم أن هناك خلافات كبيرة تضرب العالم المقاتل من أجل الحرية ، لا أحد يستطيع اخفاء هذا. كما أننا جميعا نعلم أن هذه الخلافات قد وصلت لدرجة من الحدة و المرارة تجعل احتمالية الحوار و التفاهم صعبة جدا ان لم تكن مستحيلة. و تصبح مهمة اقامة حوار بين طرفين يتجنبان الحوار مهمة عديمة الجدوى. لكن العدو حاضر ، و يضرب كل يوم ، ويهددنا بضربات جديدة وتلك الضربات ستوحدنا اليوم أو غدا أو بعد غد. و من يفهم هذا أولا و يتحضر لتلك الوحدة الضرورية سوف ينال امتنان الشعب و عرفانه.

و نظرا لأن الطرفين يدافعان عن كل قضية بخبث و عناد ، فاننا ، نحن المحرومين ، لا نستطيع أن نصطف مع

أي مـن طرفـي التنـاقض ، حتـى و ان كنـا فـي بعـض الأحيـان نؤيـد حجـة هـذا الحـزب أو ذاك ، او بمعنـى آخـر ، لا يمكننـا أن نأخـذ صـف طـرف أكثـر مـن الطـرف الآخـر. ففـي زمـن الحـرب تعـد تـك الخلافـات ضـعفا ، لكـن فـي تلـك المرحلـة لا يمكـن أن نتـوهم امكانيـة تصـفية النـزاع عبـر الكلمـات ، و التـاريخ وحـده قادر على تقليص هذا الخلاف أو كشف معناه الحقيقي.

فـــي عالمنـــا المناضـــل ، كـــل خـــلاف بخصـــوص التكتيـك ، بخصـوص وسـائل تحقيـق أهـداف محـدودة يجـب أن يـتم تحليلـه فـي اطـار احتـرام رأي الآخـر ، أمـا فيمـا يخـص الهـدف الاسـتراتيجي الأعظـم ، هـدف تـدمير الامبرياليـة عبـر الكفاح المسلح ، فاننا لا يجب أبدا أن نساوم.

ولـنلخص آمالنـا فـي الانتصـار: تحطـيم الامبرياليـة بتـدمير حصـنها الأشـد ، الاضـطهاد الـذي تمارسـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. و علـى المسـتوى التكتيكـي ، التحريـر التـدريجي للشـعوب ، واحـدا تلـو الآخـر أو فـي مجموعـات: أن نـدفع بالعـدو الـى قتـال صـعب خـارج أرضـه ، أن نفكـك قواعـد اعاشته التي هي كل البلدان التابعة له.

ان هـذا يعنـي حربـا طويلـة. و نكررهـا مـرة أخـري ، حربـا وحشـية. و عليـه ، لا أحـد يخـدع نفسـه فـي البـدايات ، أو يتـردد بـدافع مـن الخـوف مـن تبعـات ذلـك علـى شـعبه. ان هـذا هـو أملنـا الوحيـد تقريبـا فـي النصـر. اننـا لا نسـتطيع تجاهـل النـداء فـي هـذه السـاعة. النـداء الـذي تطلقـه فيتنـام ببطولتهـا التـي لا تنتهـي ، بالنضـال الملحمـي و المـوت مـن أجـل احـراز النصـر النهائي.

هنـاك ، يعـاني الجنـود الامبريـاليون ، الـذين اعتـادوا الاسـتمتاع بـنمط الحيـاة الأمريكـي ، مـن صـعوبة العـيش فـي أرض معاديـة ، مـع الشـعور بعـدم الأمـان مـن امكانيـة السـير فـي منـاطق العـدو دون ادراك. ان المـوت هـو مصـير هـؤلاء الـذين يجـرؤون علـى اتخـاذ خطـوة خـارج معسـكراتهم المحصـنة. و العـداء المسـتمر مـن الشـعب كلـه. ان كـل هـذا لـه تـداعيات داخليـة فـي الولايـات المتحـدة ، مؤديـا الـى تصـاعد تنـاقض يـتم تحجيمـه – رغـم قوتـه – بكـل القـوى الامبرياليـة الممكنـة ، انـه الصراع الطبقي داخل المعسكر الامبريالي نفسه.

اننـا ان خلقنـا فيتنـام ثانيـة ، وثالثـة و أكثـر ، و كـل منهـا تتحمـل نصـيبها مـن خسـائر العـدو و تصـبح مأسـاته ، ببطولاتهـا اليوميـة و ضـرباتها المتتاليـة لـه ، ان نشـتت جهـوده بـالهجوم المفـاجئ و الكراهيـة المتزايـدة مـن كـل شـعوب العـالم ، مـع كـل هذا يمكننا أن نرى المستقبل المشرق أقرب و أقرب.

و ان كنـا قـادرين علـى انجـاز الوحـدة لنجعـل ضـرباتنا أقـوى و أكثـر نجاحـا ، وبالتـالي تـزداد فاعليـة كـل أنـواع الـدعم المقـدم للشـعوب المناضـل ، كـم سـيكون هـذا المسـتقبل العظيم أكثر قربا !

و اذا كنـا قـد اسـتطعنا فـي نقطـة صـغيرة علـى خريطـة العـالم أن نكـرس للنضـال مـا نسـتطيع أن نقدمـه مهمـا كـان ضـئيلا ، حياتنـا و تضـحيتنا. و ان كـان علينـا فـي يـوم مـن الأيـام أن نتـنفس الـنفس الأخيـر فـي أي أرض ، هـي أرضـنا ، غـارقين فـي دمائنـا ، فليعلم الجميـع أننـا قـدرنا عاقبـة فعلنـا و أننـا نعتبـر أنفسـنا فقـط مجـرد عناصـر فـي جـيش البروليتاريـا و لكننـا أيضـا فخـورون بـالتعلم مـن الثـورة الكوبيـة و قائـدها الأعلـى الـدرس العظـيم الـذي ينبـع مـن قناعاتـه: مـاذا يعنـي الخطـر و التضـحية التـي يقـدمها انسـان أو أمـة ، ان كـان مصـير البشـرية كلـه علـى المحك ؟

ان كـل مـا نقـوم بـه هـو صـرخة فـي المعركـة ضـد الامبرياليـة ، و هـو ترنيمـة لوحـدة الشـعوب فـي المعركـة ضـد العـدو الأكبـر للانسـانية: الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. و أينمـا يمكـن أن يفاجئنـا المـوت فمرحبـا بـه ، علـى أمـل أن تكـون تلـك الصـرخة فـي المعركـة قـد وصـلت الـى آذان صـاغية ، لعـل يـدا أخـرى تمتـد لتمتشـق بنادقنـا و رجـالا آخـرين يكونـوا علـى اسـتعداد لتـرنيم اللحـن الجنـائزي بالغنـاء المتقطـع للبنـادق الآليـــة و صـــرخات معركـــة جديـــدة للحـــرب و النصـــر.



العودة للفهرس

التركيب التحتي للثورة

وثيقة عن السلاح التنظيمي

لينين، ماوتسي تونغ، هوشه منه، ستالين، جياب، لوكاكش

تأليف: غسان كنفاني

المصدر: غسان كنفاني الدراسات السياسية-المجلد الخامس، (منشورات الرمال:٢٠١٥ ط ١)، ص٤٦٥-٤٧٦.

رابط التحميل: اضغط هنا

إلى المقاومة الفلسطينية،

طريقًا إلى الجماهير العربية

القادرة وحدها على المضي

بالثورة إلى النصر

مقدمة

تزداد البراهين العملية، يومًا بعد يوم، على أن المسألة التنظيمية في الثورة تحتل مكانًا محوريًا: إنها عند لينين أحد الشروط الأساسية للثورة، وعند ماوتسي تونغ الجسر أو القارب الذي يصل بين ضفة المعرفة النظرية وضفة الممارسة، ويقرر ستالين أنه "من دون تنظيم (مكافح ثوري، شجاع، مجرب، مرن) لا يمكن حتى التفكير في القضاء على الإمبريالية.."، ويقر الأميركيون بأن السلاح الأقوى الذي يواجههم وخصوصًا في فيتنام، وفي جنوب شرق آسيا عمومًا، هو التنظيم الذي تبلغ مرونته وشجاعته حدًا يُسقط المعتدين في فخ وراء الآخر.

وبالنسبة إلى ما سمي العالم الثالث فإن الحاجة إلى التنظيم تصبح ذات قيمة مضاعفة: فليست مهمة هذه الآلة التنظيمية مواجهة العدو القومي والطبقي ودحره فحسب، بل أيضًا عليها أن تكون في الوقت نفسه حصينة ضد سيول من أمراض المجتمعات المتخلفة ونقائصها، ومنيعة ضد تمكن هذه الأمراض، الضاربة جذورها عميقًا في المجتمع، من التسلل إلى تركيبها ونخر أسسه وقواعد عمله وقنواته.

وفي المسيرة النضالية العربية كانت المسألة التنظيمية على الدوام نقطة الضعف القاتلة. فبالنسبة إلى التنظيمات التي جاهرت بأيديولوجيا تقدمية، وكذلك بالنسبة إلى التجمعات التي وصلت في مسيرتها أحيانًا إلى حمل السلاح ضد العدو الإمبريالي، كانت رخاوة البنية التنظيمية تتيح دائمًا للقيادات أن تنحرف بالثورة أو تجهضها أو تساوم في شأنها.

لا نريد من هذا الكلام أن نوحي كأن المسألة التنظيمية في كل ثورة هي مسألة تكنيكية لا علاقة لها بالالتزام الأيديولوجي ولا بالممارسة العملية. على العكس تمامًا، فإن البنية التنظيمية يجب أن تكون انعكاسًا للالتزام العقائدي، وكذلك يجب أن تتيح من خلال تكوينها ذلك الاتصال المستمر بين النظرية والممارسة.

يقول لوكاكش إن "كل حزب ماركسي عمالي ثوري يمثل، من حيث ماهيته بالذات، نمطًا من التنظيم أعلى من أي حزب بورجوازي، أو عمالي انتهازي". ولعل هذه الحقيقة هي شرح للمبدأ اللليبنيني القائل "باستحالة فصل المسائل السياسية ميكانيكياً عن مسائل التنظيم"، وذلك بلا ريب ما عناه لوكاكش بقوله " إن كل اتجاه أو خلاف في الرأي، لا بد من أن يتحول فورًا إلى مسألة تنظيمية، إذا كان لا يريد أن يظل مجرد نظرية، وإذا كان يريد حقًا أن يجد طريق تحققه.." هذه العبارات تعني جبالًا من التعقيدات إذا ما سحبناها على واقع النضال العربي في مرحلته الراهنة، وإذا امتحنا من خلالها تجربة هذا النضال في مراحله المنصرمة، إنها تعني كذلك لأنها، على وجه التحديد، الماركسية في ذروة حركتها، أي في اللحظة التنظيمية التي هي دورها بين الماضي والمستقبل.

وقد تعرّضت هذه اللحظة بالذات، اللحظة التنظيمية، في تاريخ المسيرة العربية، وخصوصًا في الأحزاب والتجمعات السياسية، لميوعة لا حدّ لها، وشهدت أشكالًا لا حصر لها من الانتهازية، فقد تجلت حينًا بصورة الانضباط الفاشي، وغالبًا بهيمنة البيروقراطية المستفيدة من "شكل" التنظيم والمتحكمة فيه، كما أنها شهدت إمكان التحول إلى "الشللية" وإلى العسكرية. وانتهى الأمر بكثير من التنظيمات نتيجة الجمود إلى التشرذم، لكن في مرات قليلة تكاد تحصى استطاعت سلامة الواقع التنظيمي لحزب من الأحزاب –نسبيًا– أن تؤدي إلى تعبير حقيقي عن واقع احتدام الجدل داخله، وتطور هذا الاحتدام نحو صيغ أرقى على صعيد المخطط السياسي، أو في طريق الالتزام الأيديولوجي.

وفي الفترة الراهنة، وقد رفعت طلائع المسيرة الوطنية العربية، الممثلة في المقاومة الفلسطينية، شعار حرب التحرير الشعبية، وهي أرقى أشكال الكفاح السياسي الثوري، فإن الحاجة إلى التركيز المضاعف على أهمية المسألة التنظيمية كجانب أساسي من جوانب جدلية التنظيم والجماهير (التي هي مادة وهدف هذه الحرب الطويلة المدى) نقول: إن التركيز المضاعف على المسألة التنظيمية يصبح مهمة ملحة يتوقف عليها جزء كبير وأساسي من مستقبل النضال.

وفي هذا العصر الذي تستميت الإمبريالية للحفاظ على مواقعها، ويشهد العالم ارتدادًا شرسًا لهجمة العالم الإمبريالي على ما يسمى العالم المتخلف، فإن السلاح الوحيد الذي تستطيع فيه الشعوب المستعمَرة والمضطهدة خوض هذه الحرب العدوانية المفروضة عليها والمسلطة على مستقبلها، والسلاح الفعال الذي تستطيع بواسطته قهر التفوق التكنولوجي للدول الإمبريالية، هو سلاح الجماهير.

وحين نقول الجماهير فإننا لا نقصد التراكم الكمي للأعداد، بل نقصد عملية التنظيم الدقيق في حزب طلائعي يقود هذه الجماهير من خلال النضال أمامها ومعها ولها.

إن المسألة التنظيمية هنا هي مسألة علاقات، وحركة هذه العلاقات:

- علاقات بين النظرية والممارسة، بحيث لا ينفصم طرف من هذه الجدلية عن طرفها الآخر فيسقط العمل في الثرثرة، أو يسقط في المغامرة.
- علاقات بين أفراد التنظيم للتعبير عن إرادتهم المشتركة.
- علاقات بين أفراد هذا التنظيم وقياداته وكوادره.
- علاقات بين التنظيم والجماهير.

ثم علاقات من نوع معاكس:

- علاقات الجماهير بالمعركة وبالعدو ، من حيث تصعيد حدة التناقض بينهما وحسمها لمصلحة الثورة.

- علاقات التنظيم بالتراث المتخلف ، ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا ، والذي يرزح المجتمع من الداخل تحت وطأته ، ويتعرض لتأثيراته اليومية.

تطرح هذه العلاقات في وقت واحد مسائل أيديولوجية وتكنيكية وتثقيفية ، على صعيدي الاستراتيجيا والتكتيك ، وهي مسائل يجري حسمها بهدي من الالتزام الأيديولوجي ، أي بواسطة السلوك العلمي ، البعيد عن الارتجال والبتر والتجريبية.

التنظيم في العمل الثوري ، إذن ، ليس عملية ترتيب تقنية ، بل هو انعكاس للموقف العقيدي ، وإذا هو مضى يشق طريقه من دون هدي من الموقف العقيدي فسينتهي إلى صيغة تآمرية ، لا إلى صيغة ثورية ، وفي أحسن الأحوال سينتهي إلى صيغة عصبوية. فالتنظيم هو وسيلة النظرية إى التنفيذ ، وهو القارب أو الجسر اللذان تحدث عنهما ماوتسي تونغ ، واللذان لا غنى عنهما أو عن واحد منهما للعبور من ضفة القرار إلى ضفة الممارسة.

فحين يقول الفكر السياسي إن المعركة هي **معركة الجماهير** فمن غير المنطقي أن يكون التنظيم –بعد ذلك– غير جماهيري.

وحين يقر الفكر السياسي بأن المعركة هي معركة الطبقات الفقيرة المستغلة ، فمن غير المنطقي أن يُنسج التنظيم بعد ذلك من قماشة بورجوازية ، أو أن **يخضع لقيادة هذه البورجوازية**.

وعندما يقر الفكر السياسي بأن العلاقة بين الفكر والعمل علاقة جدلية ، وبأنه لا يوجد فكر مجرد لا يمارس ولا ترتد إليه التجربة بالإغناء ، ثم يرتد إليها بالبديل ، فإنه من غير المنطقي ألا يضع التنظيم بعد ذلك **مسألة الديمقراطية** في صلب بنيانه.

وحين يرى الفكر السياسي أن مرحلة المعركة وتوترها يستدعيان اتخاذ القرارات السريعة والمرنة ، فإنه من غير المنطقي –بعد ذلك– ألا ينعكس ذلك التنظيم باعتماد **مبدأ المركزية الديمقراطية**.

وعندما تقر النظرية الثورية بأن المعرفة والممارسة هما طرفا حركة جدلية لا تتوقف ، وبأنهما تتبادلان مكاسبهما بصورة مستمرة ، وبأن حركتهما هذه تقتضي المضي في إجراء الإضافات والتصحيحات والتعديلات ، فإن التنظيم لا يستطيع –بعد ذلك– إلا أن يعتمد **مبدأ النقد والنقد الذاتي** أساسًا من أسس علاقاته.

ولمّا تقر النظرية الثورية بأن الاستسلام الطبقي هو احتياطي الاستسلام القومي ، وبأن الاستسلام القومي هو توفير الوضع لفرض الاستسلام الطبقي ، فإن التنظيم لا يستطيع –بعد ذلك– إلا أن يضع امتداداته العمالية والفلاحية بالدرجة الأولى من نشاطه ، وأن يمضي في هذه الامتدادات على **مستوى الأمة**.

وحين تستطيع النظرية الثورية ، بحكم كونها دليل عمل بالدرجة الأولى ، التقاط طبيعة المرحلة وسمة الفترة التي يجتازها الجهد النضالي ، فإن هذا الالتقاط إنما ينبغي له أن يعكس نفسه فورًا على طبيعة التنظيم وعلى **أولويات مهماته** ، وعلى أسلوب عمله في تلك المرحلة.

من الممكن أن نمضي في تعداد جوانب هذه العلاقة الجدلية بين النظرية وانعكاساتها التنظيمية إلى ما لا نهاية ، لكن ما يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو على وجه التحديد تتبع هذه المسألة كما تنعكس على واقع الكفاح المسلح في "العالم الثالث" ، حيث تصبح المهمات الملقاة على التنظيم المقاتل تمثل أرقى الأشكال التنظيمية وأكثرها إحكامًا.

وفي هذا المجال تبرز ثلاث نقاط جديرة بالبحث فيها:

- الأولى هي العلاقة بين الجهاز السياسي والجهاز المقاتل.

- الثانية هي نمو واتساع عملية التثقيف سياسيًا وعسكريًا ، داخل التنظيم ، وفي الأجواء والحركات الجماهيرية المحيطة به.

- توفر فرص التصحيح والمراقبة الديمقراطية.

أرقى الأشكال التي جرى دفعها إلى حل هذه المتداخلة تظهر جليًا في التجربة الثورية الفيتنامية ، وفي المقابل فإن أبرز عرض واقعي للإشكالات الكبيرة الناجمة عن عدم القدرة على حل هذه المسائل لا يمكن استقاؤه بوضوح أكثر من ذلك الذي يتبدى في تجربة المقاومة الفلسطينية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٦٧ حتى سنة ١٩٧١.

ومن هنا ، أهمية هذه الوثائق التي يشتمل عليها هذا الكتاب.

فيما يتعلق بالوثائق التي نحن بصددها ، من الضروري تسجيل الملاحظات التالية:

1. إن هذه الوثائق هي في الأصل من عملية الاستكشاف التي قامت بها مجموعات دراسية جامعية أميركية ، تعمل مع وزارة الدفاع ، للتعرف على بنية وآلية القوة التي تنازلها في جنوب شرق آسيا ، وقد عرف الأميركيون ، منذ الحرب التي خاضوها في كوريا –وربما منذ انغماسهم في الحرب العالمية الثانية في جنوب شرق آسيا– أهمية التعرف على البنية التنظيمية للقوات الوطنية المحاربة في الهند الصينية.

وباتت "مختبرات الأبحاث" ، التي تلحقها الآلة العسكرية الأميركية بوزارة الدفاع ، تشكل دماغًا قائمًا بذاته ، تعتمد عليه العدوانية الأميركية اعتمادًا أساسيًا في عملياتها التي تهدف إلى تفتيت الحركات الوطنية المسلحة ودحرها ، والوثائق التي بين أيدينا هي جزب من إنتاج هذه الأدمغة.

لكن تناولها كماحللها الأميركيون يشكل خطًا مهلكًا يمكن الوقوع فيه والتسبب بتصوير مغلوط وميكانيكي للمسألة التنظيمية في العمل السياسي.

وقد قمنا ، من خلال إعادة ترتيب المعلومات ، بعرض منقى كليًا من التدخلات التحليلية الأميركية ، كما أن هذه المقدمة تهدف إلى وضع الوثائق الآتي عرضها في سياقها السياسي الطبيعي.

2. ومع ذلك فإنه من الضروري عند قراءة هذه الوثائق التخلي عن كل اعتقاد أن المسألة هي مسألة تقنية: إن هذه البنية التنظيمية المدهشة ، المتفوقة ، هي لاسر الأساسي في قوة الثورة الفيتنامية وتجذرها وطاقتها المذهلة على منازلة أقوى قوى ضاربة عرفها التاريخ وإلحاق الهزيمة بها. نقول إن هذه البنية قد اكتملت ونمت من خلال ذلك التزاوج المذهل بين الالتزام النظري وأوضاع الواقع الموضوعي وتشعباته ، ولذلك فإن الصورة التنظيمية التي بين أيدينا هي حصيلة الجدلية القائمة بحيوية بين الحزب والجماهير ، في مكان معين ، وفي حقبة معينة ، لها أوضاعها ومعطياتها وكل من واقعها السياسي والاقتصادي والثقافي ، ولهذا فإن قراءتها يجب أن تخضع لكل هذه الخلفية وتفاعلاتها.

3. إن الأغلبية الساحقة من الدراسات التي وضعت عن المسألة التنظيمية كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- الدراسات الأساسية التي جرى فيها تثبيت قواعد رئيسية للعمل التنظيمي (لينين ، ماوتسي تونغ ، غرامشي ، لوكاكش ، إلخ.(
- المقالات والدراسات النقدية التي جرت ضد أو مع حالة حزبية معينة في هذا البلد أو ذاك ، والتي تراوحت بين النقد السلبي المرتد ، والنقد الثوري الإيجابي.
- مجموعة القوانين والأنظمة الداخلية المتعلقة بالأحزاب الشيوعية وغير الشيوعية ، المعلنة ، والتي ترسم بنى عامة للعلاقات ما بين الوحدات والمراتب المتعددة داخل الحزب.

وهذه الأنواع الثلاثة من الدراسات على أهميتها وأساسيتها ، تختلف عن الدراسات التي نحن بصددها. فهذه الدراسة التي بين أيدينا هي الدراسة الوحيدة من نوعها –في حدود علمنا– التي ترسم الخريطة التفصيلية لواقع التركيب التحتي للثورة الفيتنامية ، من حيث بنية الخلايا والعلاقات فيما بينها ، ثم العلاقات بينها وبين القيادة ، وبينها وبين الجماهير وطرق تأدية مهماتها ، ونشاطها السياسي والعسكري التثقيفي ، وذلك كله من خلال عرض تفصيلي لتجارب واقعية لخلية من الخلايا ، أو لعلاقة من العلاقات.

لا يقتصر الواقع التنظيمي لحزب ما على التعلق بقواعد عامة وترداد شعارات تنظيمية معينة ، بل يشبه ذلك التركيب المعقد والمتداخل لحركة النسغ داخل شجرة عملاقة ، وبالتالي فإن هذه الدراسة التي بين أيدينا تشبه

القيام بعملية تشريح ميكروسكوبية لذلك لعالم السري الخاص في شريحة من شرائح هذه الشجرة العملاقة.

وفي إمكان قواعد تنظيمية مثلى ، على غرار المركزية الديمقراطية ، والقيادة الجماعية ، والنقد والنقد الذاتي ، والخط الجماهيري ، أن تتحول إلى أصنام بلا محتويات في حال إهمال التركيز على آلية حدوثها وكيفية انتقالها إلى الواقع. وتهدف الدراسات في هذا الكتاب إلى استكشاف ذلك العالم الهائل الممتد في أعماق هذه القواعد التنظيمية.

* * *

تغطي هذه الدراسة كل تفصيل يهم المناضلين العرب الذين باتوا يدركون ، نتيجة دروس الواقع ، الأهمية المتزايدة للعمل التنظيمي ، والذين أدركوا أن إهمال الجانب التنظيمي في العمل الوطني كان أحد الأسباب الأساسية التي أحدثن تلك الهوة الهائلة بين النظرية والممارسة ، وأدى في كثير من الأحيان إلى هز الثقة لا بين التنظيم والجماهير فحسب ، بل بين قيادات تنظيم معين وجمهرة أعضائه أيضًا.

الثورة هي علم ، ولهذا العلم قوانين وتجاربه ودروسه ، ولا ريب في أنه من دون استيعاب هذه القوانين والتجارب والدروس تصبح "النيات" وحدها هي البوصلة العاجزة التي تعرّض المسيرة للخطأ والارتباك إن لم نقل للتعب والانحراف.

الإقرار بعمق الثورة الفيتنامية وطلائعيتها ونجاحها هو من الناحية الموضوعية إقرار بضرورة استيعاب الدروس التي طورتها هذه الثورة ورسختها وأثبتت جدارتها ، وهذا شيء طبعًا يختلف عن التغني بأمجاد تلك الثورة ، بل بتعدى ذلك إلى التعمق في دراسة السلاح الأيديولوجي والتنظيمي الذي استخدمته لمواجهة القوة الإمبريالية في معركة استنزاف طويلة تميل فيه الكفة باطراد إلى مصلحة شعوب الهند الصينية.

وتشكل هذه الدراسة وثيقة لا غنى عنها من الوثائق التي يتحتم على المناضلين العرب دراستها واستيعابها والاستفادة منها في نضالهم من أجل قهر عدوهم الصهيوني والإمبريالي والرجعي.

بيروت — ١٩٧١

